محمد باقر الحكيم

المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص . ب . ٧١٢٠

المستشرقون
وشبهاتهم حول القرآن

محمّد باقر الحكيم

المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب ٧١٢٠

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م



بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

الحمد للّه رب العالمين والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى : محمد وآله الطاهرين .

هذه هي الحلقة الثانية من سلسلة (من هدي الإسلام) نقدمها لقرائنا عن المستشرقين وشبهاتهم حول القرآن لسماحة العلامة الحجة السيد محمد باقر الحكيم ، أستاذ علوم القرآن في كلية أصول الدين ، وهي تشتمل على بعض مذكرات سماحته التي أعدها لطلبته في كلية أصول الدين ونُشر قسم منها في مجلة (رسالة الاسلام) .

وقد رغبنا إليه أن نعيد نشره في سلسلتنا هذه فاستجاب مشكوراً ، بعد أن نقحه وأضاف إليه ، وذلك تحسساً منا لخطورة الموضوع وأهميته وتحصيناً لعقول أبناء أمتنا من أن يلفها الغبار الذي تثيره الصليبية في ثوبها الجديد (الاستشراق) حول معجزة الاسلام الخالدة وكتابه العظيم

الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وسيلمس القارىء بنفسه مدى ما يتصف به هؤلاءِ المستشرقون الحاقدون على الاسلام من الذاتية والتحامل وروح التعصب في البحث ، وما يتحلى به هذا النفر المجاهد من علمائنا ومفكرينا من الموضوعية والنزاهة .

فباسم قرائنا الأعزاء نتوجه إلى سماحته بخالص الشكر وعظيم الامتنان .

الناشر

تمهيد

الاستشراق والاسلام

متى نشأ الباعث على الحركة الاستشراقية

من الصعب على الباحث تحديد زمن لوجود الباعث للحركة الاستشراقية ولكن يمكن أن نتصور ذلك نتيجة للقاء الذي تم بين الغرب والشرق بصوره المختلفة فإن هذا اللقاء أدى إلى تفاعل ثقافي كبير بين العالم الإسلامي والعالم الغربي المسيحي وبسبب هذا كانت بعض أجزاء العالم الإسلامي ـ كالأندلس ـ تحتضن لفترة طويلة من الزمن جماعات من الغربيين يدرسون الثقافة الاسلامية ومقومات الحياة الإجتماعية للجماعات المسلمة .

كما أنه نتيجة للتوسع الإسلامي ـ الفكري والسياسي ـ الذي حصل على حساب الوجود المسيحي وللحروب الصليبية وما أعقبتها من هزائم . . . نجد العالم المسيحي حينذاك يقوم

بتأسيس بعض المدارس الخاصة بالدراسات الشرقية كمحاولة لصد الغزو الفكري والعقائدي الذي جاءت به رسالة الاسلام السمحاء ومبادؤها القويمة السهلة .

ويجدر بنا أن نؤكد ـ بهذا الصدد ـ على ملاحظة هامة ذات صلة وثيقة بالموضوع هي العلاقة المتينة المستحكمة التي تربط بين أهداف الاستعمار في العالم الإسلامي والبلاد الشرقية ووسائله ، وبين أهداف الإستشراق ووسائله . بل يمكننا أن نجزم بأن الاستشراق كان ولا يزال وسيلة بارزة من الوسائل التي استخدمها الاستعمار في تحقيق أهدافه في العالم الإسلامي . لأن دراسة المستشرقين للإسلام قامت ـ في أول الأمر ـ بوحي من الكنيسة الكاثوليكية خاصة للإنتقاص من تعاليم الإسلام وإهدار قيم تعاليمه حرصاً على مذهب الكثلكة من جانب ، وتعويضاً عن الهزائم الصليبية في تحرير بيت المقدس من جانب آخر . ثم تبنى الاستعمار الغربي هذه الدراسة في الجامعات الغربية نفسها حتى يقوى القائمون بأمرها على تصديرها إلى الشرق الإسلامي في صورة كتب تؤلف وترسل إلى طلاب الثقافة أو في صورة طلاب من الشرق الإسلامي يدعون أو يعاونون على الدراسة هناك ثم يمنحون من الألقاب العلمية ما يتمكنون بها من الظفر بوظيفة

التوجيه في الكليات النظرية بالجامعات الحديثة في الشرق الإسلامي[1] .

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نتصور الوجود الاستشراقي الحديث مرتبطاً بالوجود الاستعماري في العالم الاسلامي كما نربط الباعث على الحركة الاستشراقية بالأهداف الاستعمارية للعالم الغربي . ويلخص لنا الأستاذ محمد البهي تسلل الإستعمار الغربي للعالم الإسلامي بقوله :

« في بداية القرن التاسع عشر وعلى التحديد في سنة ١٨٥٧ تم للانجليز الاستيلاء على الهند سياسياً وانتقلت سلطة الحكم رسمياً من شركة الهند الشرقية التي تأسست في ٣١/ديسمبر ١٦٠٠ م والتي انضمت مع شركة أخرى جديدة في سنة ١٦٨٩ إلى التاج البريطاني وزالت بذلك إحدى الدول الإسلامية الثلاث الكبرى التي قامت في مستهل القرن السادس عشر الميلادي وهي دولة المغول في الهند وأما الدولتان الأخريان إذ ذاك فهما : الدولة الصفوية في إيران ودولة الأتراك العثمانية في آسيا الصغرى وشرق أروبا .

كما تم في نفس السنة وهي سنة ١٨٥٧ م استيلاء الفرنسيين على الجزائر كلها إلى الصحراء بعد أن ابتدأوا في

---

(١) محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي : ٦ .

غزوها سنة : ١٨٣٠ م .

ومن قبل هاتين الدولتين الاستعماريتين (انجلترا وفرنسا) احتلت هولندا في بداية القرن السابع عشر جزر الهند الشرقية (أندونيسيا) عن طريق شركة الهند الهولندية التي تأسست في سنة ١٦٠٢ م وذلك بعدما ضاع استقلال البرتغال بإعلان ملك اسبانيا ضمها إلى بلاده في سنة ١٥٨٠ » .

فبعد قرنين ونصف ـ أي بداية القرن السابع عشر الميلادي إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر تمكن الاستعمار الغربي المسيحي من السيطرة سيطرة تامة على المسلمين في وسط آسيا وشرقها واتخذ له نقطة ارتكاز رئيسية في أفريقية . كما تمكن من مد نفوذه إلى قلب العالم الإسلامي من الشرق والغرب وسلط ألاعيبه ودسائسه على بقية التجمعات الإسلامية الأخرى بين هذين الطرفين . وما أن جاءت الحرب العالمية الأولى وانقضى أجلها حتى أصبح العالم الاسلامي كله تحت نفوذ هذا المستعمر[١] .

ومن خلال هذه الصورة الصغيرة لتسلل الاستعمار الغربي يمكننا أن نتعرف على صورة أخرى لنشوء البواعث للحركة الإستشراقية كمواكبة أو تمهيد لتحقيق بعض الأهداف

---

(١) المصدر السابق ١٥ ـ ١٦ .

الاستعمارية التي كان يستهدفها الاستعمار الغربي طبلة محاولاته للتسلل إلى العالم الاسلامي .

ولا بد لنا بهذا الصدد أن نفرق بين الإستشراق كحركة تقوم بجماعة معينة من الناس لها أهداف معينة دينية أو سياسية وبين الاستشراق ضمن مجموعة من الأفراد لا تربطهم صلة ولا هدف . فإنه على أساس النظرة الثانية قد نجد في هؤلاء الأفراد بعض الدوافع العلمية المحضة والرغبة في الإطلاع على ما في الشرق الإسلامي من معارف وعلوم وتشريع وحضارة لأنه كان يمثل قمة التقدم البشري حينذاك .

حركة الاستشراق :

وحركة الاستشراق هذه تعني في الحقيقة : الحركة ذات المظهر الثقافي والعلمي التي قادها جماعة من الغربيين تفرغوا في دراساتهم لأحوال الشرق الثقافية والإجتماعية والسياسية والتي كان لها تأثير بالغ الأهمية في حياة الشرق الثقافية وبالتالي الفكرية والإجتماعية والسياسية ، لما تتمتع به الثقافة من مركز خطير في حياة كل أمة وجماعة انسانية .

وقد جاءت حركة الإستشراق واسعة النطاق فشملت كل الشرق بدياناته ومذاهبه ومجتمعاته المختلفة كما أن الذين

قادوها كانوا يتصفون غالباً بأنهم رجال دين كرسوا حياتهم لخدمة ديانتهم الخاصة وإن كانوا يحاولون أن يسبغوا على أبحاثهم الصفة العلمية الموضوعية ، وبذلك افترقوا عن رجال الدين المبشرين بالمسيحية الذين عملوا لها بصورة علنية . وقد نجد بعض المستشرقين أحياناً ينزع إلى العلمانية والتجرد عن الصفة الدينية بشكل مطلق ليؤكدوا بذلك الصبغة الموضوعية في أبحاثهم .

ونحن في دراستنا الخاصة هذه سوف نقتصر على الحديث عن حركة الاستشراق فيما يختص منها بالعالم الاسلامي والأمة الإسلامية وذلك للأسباب التالية :

أولاً ـ أن العالم الإسلامي يعتبر إلى وقت قريب نقطة الإرتكاز المهمة في الشرق بشكل عام سواء من الناحية السياسية أو الاجتماعية أو الثقافية . ولذلك كان الهدف الرئيسي لكثير من أعمال المستشرقين وأساليبهم بصورة خاصة .

الثاني ـ أن أسباباً معينة سوف تنكشف خلال حديثنا عن الاستشراق إلى التأكيد على العالم الإسلامي بالخصوص وفي مقدمتها الأسباب الدينية ، إلى جانب الأهمية التي كان يتمتع فيها الشرق بصورة عامة .

الثـالث ـ إننا بـوصفنا مسلمـين يجب أن نهتم بهـذا الجـانب من الإستشراق في دراستنا لـه لأنه الجـانب الذي يعنينـا بشكل خاص .

موقف المستشرقين من الإسلام

لقد تحدث الأستـاد محمد البهي عن مـوقف المستشرقـين من الاسلام في مواضـع متعددة من كتـابه السـابق الذكـر. وسوف نلخص مـا ذكره بهـذا الصـدد ونضيف اليـه بعض التعليقـات التي نراها تنسجم مع هذا العرض.

ينـطوي عمـل الـدارسـين لـلإسـلام من المستشـرقـين عـلى نزعتين رئيسيتين :

النـزعـة الأولى : تمكـين الاستعمـار الغـربي من البـلاد الإسلامية وتمهيد النفوس بـين سكان هـذه البلاد لقبـول النفوذ الأوربي والرضا بولايته .

النـزعة الثـانية: الـروح الصليبيـة في دراسـة الإسـلام تلك النـزعة التي لبست في إطـار حـركـة الإستشـراق ثـوب البحث العلمي وخدمة الغاية الإنسانية المشتركة.

تمكين الاستعمار من البلاد الاسلامية :

أما النزعة الأولى فتتجلى في خطين رئيسيين :

الأول - إضعاف القيم الإسلامية الدينية .

الثاني : تمجيد القيم الغربية المسيحية .

وقد نهج المستشرقون تنفيذاً للخط الأول طريقاً في شرح تعاليم الإسلام ومبادئه يضعف في المسلم تمسكه بالإسلام ويقوي فيه الشك به كدين أو على الأقل كمنهج سلوكي يتفق وطبيعة الحياة القائمة . كما أنهم درسوا العلاقات الإجتماعية القائمة في المجتمع الاسلامي بشكل يؤدي إلى تفكيك الرابطة الإسلامية ويقضي على الشعور بالوحدة الدينية كإثارة النعرات الطائفية والقومية والخلافات بين زعماء البلاد الإسلامية .

وهناك شواهد كثيرة تدل على هذا المنهج الذي سار عليه المستشرقون . فرينان المستشرق الفرنسي المعروف يحاول أن يصور عقيدة التوحيد في الإسلام بأنها عقيدة تؤدي بالفرد المسلم إلى الحيرة وتحط به كإنسان إلى أسفل درك . على حين أن عقيدة التوحيد مزية الإسلام وآية على أنه الرسالة الكاملة الواضحة لخالق الكون إلى عباده كما أنها الطريق السليم والوحيد إلى رفع شأن الإنسان وتكريمه وتحريره من سائر العبوديات الأخرى لأن صاحب هذه العقيدة لا يخضع في حياته لغير اللّه ولا يتوجه في طلب العون إلى غيره سبحانه .

ولكن رينان يأبى هذا كله ويقول بصدد الحديث عن عقيدتي القدر والاختيار :

« وقد ظهرت على اطلال العالم القديم بعد خمسمائة عام مدين انقضائه إثنتان أحدهما (ربانية !) والثانية (بشرية !) تمثلان ذينك المذهبين . . مذهب الجبر ومذهب الاختيار . . المتناقضين ولكن بتلطيف في التناقض .

أما الأولى (الديانة الربانية !) فهي الديانة المسيحية الوارثة بلا واسطة آثار الآريين والمقطوعة الصلات بالمرة مع مذهب السامية وإن كانت مشتقة منه وغصناً من دوحته . ومن خصائص هذه الديانة (المسيحية) ترقية شأن الإنسان بتقريبه من الحضرة الإلهية ؟!! . على حين أن الديانة الثانية (البشرية) وهي الإسلام المشوبة بتأثير مذهب السامية تحط بالإنسان إلى أسفل درك وترفع الإله عنه في علاء لا نهاية له . هذان الميلان المختلفان يظهران ظهوراً واضحاً في الإعتقاد الأساسي لكلتا الديانتين وهو أصل الألوهية .

أما المسيحي فيذهب في هذا الأصل إلى الثالوث أي أن الإله الأب أوجد الإله الابن واتصل الإثنان بصلة هي روح القدس . وعليه فيكون يسوع المسيح إلهاً ومبشراً . هذا الثالوث السري المشتقة أصوله من ضرورة إله بشري يمحو

ذنب الجنس البشري ويفديه من الخطيئة التي اقترفها !!!.
يرفضه المسلم الذي يعتقد بوحدانية الرب ويتمسك بهذا الاعتقاد تمسكاً شديداً حيث يقول لا إله إلا اللّه » .

« غير أن إدراك المسيحيين من هذا القبيل هو أخف وأعلى وأجلب للثقة إذ هو يحملهم على إتيان الأعمال التي تقربهم إلى اللّه، حيث الوسائط بينهم وبين ذاته العالية موصولة . في حين أن المسلمين تجعلهم ديانتهم كمن يهوي في الفضاء بحسب ناموس لا يتحول ولا يتبدل ولا حيلة فيه سوى متابعة الصلوات والدعوات والإستغاثة باللّه الأحد الذي هو مستودع الآمال ولفظة الإسلام معناها : (الاستسلام المطلق لإرادة اللّه » .

وكان رينان لا يدرك الفرق بين النظرية المسيحية في الإنسان التي ترى في حقيقته ما يبعث فيه شعور الغرور والتعالي حتى تصل به أن يرى نفسه إبناً للّه وفرعاً عنه وتأبى عليه أن ينهج المسلك الذي يوصله إلى هذه الحقيقة المزعومة بينما ترى النظرة الإسلامية في الإنسان إنه عبد اللّه سبحانه وتعالى أوكل إليه مهمة خلافته في الأرض ولم تكتف بذلك بل رسمت له النظرية الإسلامية منهجاً يصل به إلى تحقيق هذه الخلافة وبلوغ أعلى مراتب الإرتقاء الروحي والذاتي ويكون

بذلك قريباً إلى اللّه سبحانه وتعالى كقاب قوسين أو أدنى .

والإله في النظرية الإسلامية بالرغم من جبروته وتعاليه وعظمته قريب من الإنسان بحيث يتمكن أن يتصل به في كل وقت وفي كل مكان لا يحجبه عنه شيء ولا يحتاج في ذلك إلى الوسائط والكهنة والرهبان بل الإله هو الذي يتحبب إلى الإنسان بالنعم والالطاف وبذلك يتبين أن النظرية الإسلامية هي التي تنمي في الإنسان الشعور بالثقة والقدرة على الإرتقاء والصعود إلى أعلى المراتب لا النظرية المسيحية التي يبعث فيه الغرور والتعالي من غير محتوى حقيقي ولا منهج قويم .

وقد كتب هذا : رينان في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وكان يظن أن هذا الأسلوب مختص بالعقلية الاستعمارية التي كانت تسيطر على العالم الغربي آنذاك . وأما العقلية العلمية التي تدعيها العقلية الغربية المعاصرة والتي ينظر إليها على أنها من مفاخر القرن العشرين لأنها تزعم أنها لا تخضع في بحث المسائل وإصدار الأحكام لأي أثر حزبي أو مذهبي أو عاطفي مما يتأثر به الإنسان العادي كان يظن أن هذا القرن العشرين لا يصدر فيه مثل تصوير رينان المتحيز للتثليث المسيحي ضد التوحيد الإسلامي ولكن مجلة أمريكية يصدرها الدكتور (كريج) مدير مؤسسة هارتفورد للدراسات

الدينية الشرقية تردد هذا التصوير في شرح آية ﴿**إلى اللّه المصير**﴾ فتقول ما ترجمته (إن إله الإسلام متكبر جبار مترفع عن البشرية يطلب أن يسير العابد نحوه بينما إله المسيحية عطوف متواضع يتودد للناس فظهر في صورة بشرية وذلك هو الإله الإبن فعقيدة التثليث في المسيحية قربت الإنسان من الإله وأعطته نموذجاً رفيعاً واقعياً في حياته يسعى ليتقرب منه . أما عقيدة التوحيد فباعدت بين الإنسان والإله وجعلت الإنسان متشائماً من شدة الخوف منه ومن جبروته وكبريائه) .

ولا شك أن هذا التفسير ينطوي على جهل فاضح بالمعنى القرآني المقصود من الآية الكريمة التي تدل على أن الإنسان سوف يصير إلى اللّه سبحانه في ثوابه وعقابه ويقصد بذلك اليوم الآخر الذي يدان به العاملون ولا يرتبط بصيرورة العابد وسيرته إليه . وعقيدة اليوم الآخر لا يختص بها الإسلام من دون الأديان الأخرى .

ونجد مثل هذا الاتجاه المتحيز والموقف الملتزم في تفسير أكثر المبادىء الإسلامية روعة وأعظمها أثراً وفاعلية . فمبدأ الزكاة يفسر على (أن الأموال المادية في نظر الإسلام هي من أصل شيطان نجس ويحل للمسلم أن يتمتع بهذه الأموال

شريطة أن يطهرها وذلك بإرجاع هذه الأموال إلى اللّه)[1]

وكأنه أخذ هذا التفسير الخاص لمبدأ الزكاة من قوله تعالى ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم** ﴾ . ولم يفهم أن الضمير يرجع إلى الناس لا إلى الأموال وإن الطهارة هنا طهارة روحية لا طهارة مادية حسية .

وليس هذا التفسير للزكاة اختص به هذا المبشر بشكل خاص وإنما يردده غيره من المسيحين القائمين على الدراسات الإسلامية في الوقت الحاضر . ففي تاريخ (٥) إبريل ١٩٥٦ تحدث اب دومينيكاني من مصر كان يقوم بإلقاء محاضرات عن علم الكلام الإسلامي بجامعة مونتريال الأمريكية عن النظرة الإسلامية للحياة فقال : (إن المسلمين يتجنبون الناس الذين ينشغلون بالمال ويعتبرونهم أقرب للكلاب منهم للبشر) .

ومثل هذا التصوير على أنه موقف الإسلام من المال في شعب كالشعب الأمريكي مادي النزعة يسيء إلى الإسلام والمسلمين أيما إساءة .

وبمثل هذه النظرة يشرح المستشرقون مبدأ (قوامة الرجل بأنه عبارة عن الإلتزام بالتفوق الطبيعي ومبدأ الجهاد بأنه

---

(١) دراسة الإسلام في أفريقيا السوداء لمؤلفه فيليب فونداس .

فكرة عدوانية ومبدأ عدم زواج المسلمية بغير المسلم بأنه فكرة عنصرية ، ومبدأ العودة إلى مبادىء القرآن بأنها رجوع إلى الحياة البدائية[1] .

مع أن التفوق الطبيعي ليس هو المنطلق الحقيقي لقوامة الرجل على المرأة في الإسلام وإنما هو مبدأ تنظيمي يقصد منه تنظيم مسيرة الأسرة وحفظ تماسكها واختص الرجل بها دون المرأة لطبيعة القابليات التي فطره اللّه عليها والمسؤوليات الملقاة على عاتقه كما اختصت المرأة بحضانة الطفل وتربيته للأسباب نفسها وهذا المبدأ يشبه إلى حد بعيد قيمومة ولي الأمر على الأمة أو قيمومة أي شخص تختاره الأمة لإدارة شؤونها لسبب ما يتمتع به من قابليات أو ما تتحمله من مسؤوليات وليس بسبب التفوق الطبيعي له .

كما لا يوجد في تحريم زواج المرأة المسلمة من غير المسلم أي نظرة عنصرية بعد أن سمح للمرأة المسلمة أن تتزوج أي مسلم شاءت وجعل المسلم كفواً للمسلم وألغى جميع الفوارق الطبيعية والعرقية والمالية وإنما ينطلق هذا المبدأ من أساس فكري واجتماعي أراد منه أن يحفظ المرأة من الإنحراف عن

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغربي ٤٢ ـ ١٤٤ .

عقيدتها وفكرتها فأبعدها عن مثل هذا المنحدر الخطر الذي قد يسير بها إلى الهاوية .

ومن الطبيعي أن تكون العودة إلى مبادىء القرآن الكريم من أهم الشعارات التي يؤمن بها الإنسان المسلم اليوم بعد أن يرجع إلى عقيدته وتاريخه ويجد في تلك المبادىء أساساً متيناً يملأ جوانب الفراغ العقائدي والفكري الذي يعاني منه المجتمع الإسلامي ويتخبط من أجله في دياجير الأنظمة الكافرة وظلمات العقائد الفاسدة لا يجد في تاريخ تلك المبادىء ما أحدثته في محتوى الإنسان الداخلي وفي علاقاته الاجتماعية من إنقلاب وتغير شامل في فترة وجيزة من الزمن . وليس في ذلك رجوع إلى البدائية بعد أن كانت تلك المباديء تنسجم مع الأزمنة المختلفة وتتلائم مع المدنيات المتطورة التي بشر بها القرآن الكريم ونبيه العظيم .

والخط الثاني لتمكين الإستعمار من البلاد الإسلامية :

هو تمجيد القيم الغربية المسيحية وشرح صلاحياتها لإقامة الحياة الإجتماعية على أساسها .

وقد انطلق المستشرقون في هذا الأسلوب من نقطة بارزة كان لها في عقل الفرد المسلم وضميره وحياته تأثير كبير وهذه النقطة هو التقدم الصناعي والتفوق التكنولوجي للغرب والزيادة الملحوظة في دخل الفرد والرفاه المادي في الحياة

الإجتماعية الغربية ، حيث حاول المستشرقون أن يربطوا ذلك بالقيم والملل المسيحية على أساس أنها هي السبب في انطلاقة الغرب الصناعية والإجتماعية .

وقد اعتبرت حلقة الوصل في هذا الربط تبني الغربيين للديانة المسيحية على أنها الديانة العامة لشعوبهم . فالغربيون مسيحيون والغربيون متقدمون إذن فسبب التقدم هو القيم والمثل الغربية المسيحية . والشرقيون مسلمون والشرقيون متأخرون إذن فالقيم والمثل الإسلامية هي سبب هذا التأخر .

وقد فات هؤلاء أن أوربا كانت ترزح تحت أثقال الجهل والمرض والفساد الاجتماعي وتعيش عصوراً مظلمة حين كانت تسيطر عليها المسيحية في الوقت الذي كانت تعيش الأمة الإسلامية حياة مزدهرة حين كان يعيش الإسلام وجوداً اجتماعياً في صفوفها ويتحكم في علاقاتها وتصرفاتها .

ثم أين هي القيم المسيحية ذات الأثر في هذه المدنية الصناعية الأوربية . ليست هناك أي صلة بين المسيحية كدين وبين هذه الحضارة الصناعية الغربية لأن المسيحية ليست إلا سلوكاً فردياً يستوحى من السلوك الخلقي لشخص عيسى (ع)[١] .

---

(١) راجع مقدمة كتاب اقتصادنا الطبعة الثانية لاستاذنا (الصدر) لمعرفة=

نعم تقوم هذه الصلة بين المسيحية والحضارة الغربية الصناعية في أن صاحب الحضارة يرفع المسيحية شعاراً ويتبناها ديناً وإن كان لا يلتزم بقيمها ومثلها واقعاً وعملاً .

٢ ـ تأكيد الروح الصليبية

والنزعة الثانية التي يتحكم في أعمال المستشرقين وأبحاثهم الروح الصليبية الدينية التي استبطنت الحقد والبغضاء نتيجة للعوامل السياسية الاجتماعية والدينية التي كانت تربط المسيحية بالإسلام .

ولذلك نجد أن أعمال المستشرقين المرتبطين بالكنيسة تنبىء عن الحقد أكثر مما تنبىء عن محاولة إضعاف المسلمين وتحطيم قيمهم الفكرية والروحية ويبدو ذلك جلياً واضحاً في أعمال المستشرقين الكاثوليك وبالأخص المستشرقين الفرنسيين .

وقد صور المستشرق المسلم (محمد أسد) هذه الروح الصليبية وتأثيرها في أبحاث المستشرقين في كتابه الإسلام على مفترق الطرق كالتالي :

حقيقة تأثير الأخلاق الإسلامية والأخلاق الغربية على التقدم الاجتماعي والمدني .

(لا تجد موقف الأوروبي موقف كره في غير مبالاة فحسب كما هي الحال في موقفه من سائر الأديان والثقافات عن الإسلام بل هو كره عميق الجذور يقوم في الأكثر على جذور من التعصب الشديد . وهذا الكره ليس عقلياً فقط ولكنه أيضاً يصطبغ بصبغة عاطفية قوية .

قد لا تقبل أوربا تعاليم الفلسفة البوذية أو الهندوكية ولكنها تحتفظ دائماً فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلي متزن ومبني على التفكير . إلا أنها حالما تتجه إلا الإسلام يختل التوازن ويأخذ الميل العاطفي بالتسرب حتى أن أبرز المستشرقين الأوروبيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام ويظهر في جميع بحوثهم على الأكثر كما لو أن الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنه (موضوع بحث) في البحث العلمي بل إنه متهم يقف أمام قضاته .

إن بعض المستشرقين يمثلون دور المدعي العام الذي يحاول إثبات الجريمة وبعضهم يقوم مقام المحامي في الدفاع فهو مع إقتناعه شخصياً بإجرام موكله لا يستطيع أكثر من أن يطلب له مع شيء من الفتور اعتبار الأسباب المخففة .

وعلى الجملة فإن طريقة الإستقراء والاستنتاج التي يتبعها أكثر المستشرقين تذكرنا بوقائع دواوين التفتيش تلك الدواوين

التي أنشأتها الكنيسة الكاثوليكية لخصومها في العصور الوسطى أي أن تلك الطريقة لم يتفق لها أبداً إن نظرت في القرائن التاريخية بتجرد وغير تحزب .

ولكنها كانت في كل دعوى تبدأ باستنتاج متفق عليه من قبل قد أملاه عليها تعصباً لرأيها ويختار المستشرقون شهودهم حسب الاستنتاج الذي يقصدون أن يصلوا إليه مبدئياً وإذا تعذر عليهم الاختيار العرفي للشهود عمدوا إلى اقتطاع أقسام الحقيقة التي شهد بها الشهود الحاضرون ثم فصلوها عن المتن أو تأولوا الشهادات بروح غير علمية من سوء القصد من غير أن ينسبوا قيمة ما إلى عرض القضية من وجهة نظر الجانب الآخر . أي من قبل المسلمين أنفسهم) .

والشواهد على هذا الروح الحاقد في أعمال المستشرقين كثيرة نذكر منها المثال التالي :

يقول المستشرق الفرنسي كيمون واصفاً الإسلام :

(إن الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً بل هو مرض مريع وشلل عام وجنون ذهولي يبعث الإنسان على الخمول والكسل ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء ويدمن معاقرة الخمور ويجمع في القبائح وما قبر محمد إلا عمود كهربائي يبعث الجنون في رؤوس المسلمين ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الصرع العامة والذهول العقلي

وتكرار لقطه (اللّه) إلى ما لا نهاية والتعود على عادات تنقلب إلى طباع أصيلة ككراهة لحم الخنزير والنبيذ والموسيقى وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور والانغماس في اللذات)[1] .

أخطاء المستشرقين في البحوث الإسلامية أسبابها ـ نتائجها :

لقد انتهى المستشرقون في البحوث الإسلامية إلى عدة نتائج خاطئة ، وقد عرفنا بعض هذه الأخطاء عندما عرضنا موقفهم من الإسلام . ويحسن بنا ـ قبل أن نذكر أسباب هذه الأخطاء والنتائج التي أدت إليها ـ أن نشير بشكل إجمالي إلى الأسس العامة التي تفرعت عليها هذه الأخطاء وهي كما يلي :

١ ـ محمد مصلح ديني وضع نظاماً جديداً دينياً أسماه (الإسلام) وأولى بهذا النظام أن يسمى بالمذهب المحمدي . ومحمد في الوقت نفسه إنسان عادي وقرآنه صنعة بشرية يكثر فيها التناقض وعدم الإنسجام .

٢ ـ والإسلام الذي وضعه محمد تأثر فيه بالتغاليم الدينية

---

(١) تاريخ الإمام محمد عبده ٣/٤٠٩ .

السابقة عليه كتعاليم اليهودية والمسيحية . وهو حين اقتبس من تعاليم هاتين الديانتين حرف ما اقتبسه نتيجة لتأثره بعوامل شخصية وبشرية . ولذا نجده مثلاً ينكر ألوهية المسيح .

٣ ـ والإسلام بعد ذلك دين فردي سحصي لا يصح أن يتدخل في حياة الأفراد وعلاقاتهم بعضهم ببعض ولذا يجب فصله عن المجتمع والدولة .

٤ ـ وهو نفسه ـ أيضاً ـ يخضع لعوامل الزمن والتطور الاجتماعي فلا بد من تطويره تبعاً لتطورها فهو موقوت ـ بمبادئه وأحكامه ـ بهذا التطور .

أسباب أخطاء المستشرقين :

وبصدد معرفة السبب لأخطاء المستشرقين في بحوثهم الإسلامية لا بد لنا أن نلاحظ الترابط الوثيق بين شتى العوامل والمؤثرات السياسية والنفسية والفكرية للمستشرقين أنفسهم ، الأمر الذي أدى بدوره إلى وجود كثير من الأخطاء الأخرى وتراكمها في بحوث المستشرقين . ونحن وإن كنا قد ألمحنا إلى بعض هذه الأخطاء وأسبابها ولكن يمكننا أن نجمل هنا هذه الأسباب بالعوامل التالية :

١ ـ الأهداف الاستعمارية التي كانت تختفي وراء أعمال المستشرقين وبحوثهم متسترة بالروح العلمية والدراسة الموضوعية.

٢ ـ الروح الصليبية التي كانت تلقي بثقلها على أبحاث المستشرقين لتجعلها تقف موقف التحزب ضد الإسلام وإتهامه وكانت تشيع في أبحاثهم الكراهية والحقد والبغضاء .

٣ ـ التأثر بالأفكار الحضارية المادية التي شاعت في الحياة الأوروبية إبان عصر النهضة الصناعية والخروج على سلطة الكنيسة الروحية وبالتالي على كل ما يمت إلى الدين بصلة وما زالت المجتمعات الغربية تعيش تحت سيطرة ونفوذ هذه الأفكار الأمر الذي كان له تأثير في محاولة عزل الإسلام عن الحياة الاجتماعية .

٤ ـ النظرة إلى الإسلام والقرآن على أنهما من صنع محمد الذي تأثر بالديانة اليهودية والمسيحية وبالعوامل البشرية والشخصية .

٥ ـ دراسة الإسلام وشريعته ـ بالإضافة إلى القرآن والسنة النبوية ـ من خلال المجتمع الإسلامي والمدارس الفقهية والعقيدية والفلسفية والاجتماعية التي عاشت وتكاثرت بين المسلمين ، بالإضافة إلى اعتبار مجموعة الأحاديث والروايات

عن النبي (ص) والصحابة بمستوى واحد في القيمة والأهمية دون الاقتصار على خصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة للتعرف على نظام الإسلام وحقيقته .

٦ ـ عدم فهم بعض النصوص الإسلامية وتجريدها عن ظروفها وقرائنها الحالية .

نتائج أخطاء المستشرقين :

وكان لأعمال المستشرقين وبحوثهم نتائج بعيدة المدى في المجتمع الإسلامي سواء في ذلك ما يتعلق بالجانب الفكري والثقافي أو ما يتعلق بالجانب السياسي والإجتماعي .

أ ـ الجانب الفكري والثقافي :

أما فيما يتعلق بالجانب الفكري والثقافي :

فقد أدت هذه الأعمال والبحوث إلى تشويه المفاهيم والثقافة الإسلامية لدى جمهرة المسلمين الأمر الذي أدى إلى ظهور إتجاهات وتيارات فكرية وثقافية مختلفة في المجتمع الإسلامي يتنافى بعضها مع مبادىء الإسلام القويمة وقد تمركزت هذه الاتجاهات في اتجاهين فكريين ثقافيين رئيسيين في العالم الإسلامي .

أحدهما : الإتجاه الذي يعمل على تحريف الإسلام وتشويه

معالمه باسم (التجديد) وتحويره إلى الشكل الذي لا يتنافى مع تقرير سلطة المستعمر وتثبيت ولايته على المسلمين من الوجهة الإسلامية أو على الأقل إن لا يكون الإسلام عامل تحد أو معارضة للحكم الإستعماري أو الأنظمة الحديثة الكافرة التي يريد أن يفرضها على المسلمين .

ثانيهما : الاتجاه المضاد الذي سار عليه جماعة من كبار علماء الإسلام في محاولة لصياغة المفاهيم الإسلامية صياغة حديثة تتضح فيها معالم قدرة الإسلام على معالجة مشاكل الحياة الحديثة وإمكاناته في الحكم والتطبيق في العصر الحاضر ، مع تجريده من العادات والتقاليد التي أصبحت في نظر بعض المسلمين ـ نتيجة تقادم الزمان عليها ـ وكأنها جزء من الشريعة الإسلامية .

ونتيجة لتنامي قوة الاستعمار وسيطرته العسكرية والسياسة الفكرية على العالم الإسلامي حدثت مضاعفات وتطويرات للإتجاه الأول انتهت إلى نشوء تيارات فكرية الحادية وكافرة في العالم الإسلامي تبناها عدد من أبناء المسلمين أنفسهم .

وقد كان لكل واحد من هذين الإتجاهين الرئيسين وما تفرع عنهما من تبارات أنصاره ومؤيدوه .

ب ـ الجانب الاجتماعي والسياسي :

وأما فيما يتعلق بالجانب.الاجتماعي والسياسي :

فقد أدى انتشار الأفكار الغربية المسيحية والسيطرة الاستعمارية العسكرية والسياسية إلى حدوث تغييرات كبيرة في العالم الإسلامي سياسية وإجتماعية . فظهرت الإتجاهات و (العنصرية) كما شاع تطبيق (القوانين الكافرة والأنظمة الغربية) تحت شعارات وأسماء مختلفة من (الحرية) و (التجديد) و (الإصلاح) وغير ذلك .

كما انخفضت الروح الدينية بين المسلمين اعتادوا الحكم الكافر وأنظمته وانقسم العالم الإسلامي إلى دول وبلاد مختلفة ومتنازعة فيما بينها في كثير من الأحيان . وفي كل هذه الأوضاع تلاحظ لأعمال المستشرقين وبحوثهم مساهمة كبيرة وآثار ونتائج لأنها كانت تمثل بالنسبة لهما الأساس الفكري والسياسي . وإلى جانب ذلك تجد لأبحاث المستشرقين تأثيراً آخر في المجتمع الغربي نفسه حيث أخذ الفرد الغربي ينظر إلى الإسلام نظرة سيئة حاقدة وقد صور لنا المستشرق النمساوي المسلم محمد أسد هذه النظرة بقوله : (إلا أن الشر الذي بعثه الصليبيون لم يقتصر على صليل السلاح ، ولكنه كان قبل كل شيء وفي مقدمة كل شيء شراً ثقافياً . لقد نشأ

تسميم العقل الأوربي عما شوهه قادة الأوربيين من تعاليم الإسلام ومثله العليا أمام الجموع الجاهلة في الغرب . في ذلك الحين استقرت تلك الفكرة المضحكة في عقول الأوربيين من أن الإسلام دين شهوانية وعنف حيواني وأنه تمسك بفروق شكلية ، وليس تزكية للقلوب وتطهيراً لها ثم بقيت هذه الفكرة حيث استقرت)[1] . وعلى هذا الأساس يمكن أن تلخص المجالات التي ساهمت في تكوينها أخطاء المستشرقين في بحوثهم وأعمالهم كالتالي :

(١) تشويه الثقافة الإسلامية بجوانبها المتعددة في العالم الإسلامي وفي المجتمع الغربي .

(٢) أضعاف الروح الدينية والعقيدية عند المسلمين .

(٣) قيام الأوضاع الاجتماعية والسياسية الكافرة في العالم الإسلامي .

(٤) روح التجديد في الإسلام أو في المفاهيم الإسلامية على اختلاف اتجاهاته ودوافعه .

تحامل المستشرقين على القرآن والسنة خاصة

ولقد خص المستشرقون القرآن الكريم والسنة النبوية

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق: ٥٨ .

بقسط وافر من أبحاثهم وأعمالهم . وتعرضا نتيجة لذلك إلى كثير من الهجمات العنيفة . ومن الواضح أن السبب في ذلك هو ما يتمتع به القرآن الكريم والسنة النبوية من مركز ديني وثقافي في الإسلام . فهما يعتبران الأساس الذي تقوم عليه العقيدة والثقافة الإسلامية كما أنهما المصدران الأساسيان للنظام الإسلامي والشريعة الإسلامية بالإضافة إلى نظرة التقديس التي ينظر بها الفرد المسلم إليهما .

ولا شك أن القرآن الكريم والسنة النبوية يعتبران من أقوى الأدلة على صدق نبوة محمد (ص) على أساس ما فيها من مفاهيم وأفكار وتشريعات وأخبار لا يمكن أن تكون وليدة عصر البعثة ولا من صنع شخص الرسول الأمر الذي أدركه المستشرقون بشكل واضح ودعاهم إلى مهاجمة القرآن والسنة النبوية في محاولة للتشكيك في صدورها بذلك العصر وإبراز الإختلافات والتناقضات فيهما أو غير ذلك من الجوانب التي تسقط هذه الميزة لهما .

وفي بحثنا هذا سوف نتناول بعض الشبهات المهمة التي أوردها المستشرقون حول القرآن الكريم وذلك نظراً لما تفرضه أهمية القرآن على الخصوص من ناحية وطبيعة البحث القرآني من ناحية أخرى .

شبهة المستشرقين حول الوحي

لقد أثار أعداء الإسلام من جاهليين قدامى ومستشرقين جدد الشبهات الكثيرة حول الوحي القرآني ، وكانت تستهدف هذه الشبهات في الغالب التأكيد على أن الوحي القرآن ليس مرتبطاً بالسماء وإنما هو نابع من ذات محمد (ص) .

وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض الشبهات في مواضع مختلفة[1] وردد بعض المستشرقين هذه الشبهات وغيرها وحاول إضفاء طابع البحث والدراسة وسمات الموضوعية عليها كما هي الطريقة المتبعة لديهم في مثل هذه الحالات .

ويحسن بنا أن نكون فكرة واضحة عن الوحي الذي نحن بصدد بحث الشبهة حوله ومناقشتها تمهيداً للدخول في صلب الموضوع .

---

(١) منها الأنبياء : ٢١ والدخان : ١٤ والفرقان : ٥ والنحل ١٠٣ وغيرها .

ما هو الوحي ؟

الوحي لغة : هو الإعلام في خفاء[1] ولكن ما هو الوحي الإلهي الذي اختص به اللّه سبحانه النبيين من عباده وتجلى بشكل واضح في القرآن الكريم ؟ .

وبصدد الإجابة عن هذا السؤال يمكن أن نقول : أن كل فكرة يدركها الإنسان فهي ترتبط في وجودها . . بسبب أو بآخر . . باللّه سبحانه وتعالى خالق الإنسان ومدبر أموره . ولكن شعور الإنسان تجاه مصدر هذه الفكرة . . بالرغم من إدراكه العقلي لهذه الحقيقة . . قد يكون مختلفاً . ونذكر أنحاء ثلاثة لهذا الشعور :

آ ـ أن يشعر بأن الفكرة نابعة من ذاته ، ووليدة جهده الخاص وإدراكه الشخصي ، وهذا الشعور هو ما نحسه في حالات الإدراك الاعتيادية تجاه أفكارنا العادية . فإننا ـ مع اعتقادنا بأن أفكارنا منسوبة إلى اللّه تعالى على أساس أنه الخالق المدبر لعالم الوجود بجميع مقوماته ، ومنه قدرتنا على التفكير ـ نشعر وكأن هذه الفكرة وليدة هذا المزيج المركب في ذات أنفسنا وناتجة عن مجموعة المواهب والقدرات الشخصية لنا .

---

(١) لسان العرب ١٥/٣٨١ مادة : وحي .

ب ـ أن يشعر الإنسان بأن الفكرة ، قد ألقيت إليه من طرق علوي وجاءته من خارج ذاته ، وشعوره هذا بدرجة من الوضوح بحيث يحس بهذا الإلقاء والإنفصالية بين الذات الملقية والذات المتلقية . ولكنه مع ذلك كله لا يكاد يحس بالأسلوب والطريقة التي تمت فيها عملية إلقاء الفكرة . وهذا النحو من الشعور تجاه الفكرة هو ما يحصل في حالات (الإلهام) الإلهي[1] .

ج ـ أن يصاحب الشعور الحسي الذي شرحناه في فقرة (ب) ، شعور حسي آخر بالطريقة والأسلوب الذي تتم به عملية الإلقاء والإتصال وهذا الحس والشعور ـ سواء الحس بأن الفكرة جاءت من أعلى أو الحس بأن مجيئها كان بالأسلوب الخاص ـ لا بد فيه أن يكون واضحاً وجلياً وضوح إدراكنا للأشياء بحواسنا العادية . وهذا هو ما يحدث في حالات الوحي إلى الأنبياء ، أو على الأقل ما حدث في وحي القرآن الكريم إلى نبينا محمد (ص) .

إذن فهناك فرق بين الإدراك العادي الذي يكون نتيجة الموهبة ، وبين الإلهام ، والوحي .

---

(١) قارن بهذا ما ذكره الدكتور صبحي الصالح في كتابه « مباحث في علوم القرآن » .

لأن إدراك الموهبة في الحقيقة ، يعبر عن فكرة يدركها الإنسان ، مع شعوره بأنها نتيجة للجهد الشخصي ، وإن كان يدرك بشكل عقلي ومنطقي أنها مرتبطة بسبب أو بآخر بالله سبحانه .

والإلهام : عبارة عن فكرة يدركها الإنسان ، مصحوبة بالشعور الواضح ، بأنها ملقاة من طرف أعلى منفصل عن الذات الإنسانية ، وإن كان لا يدرك الإنسان شكل الطريقة التي تم فيها هذا الإلقاء .

والوحي : عبارة عن فكرة يدركها الإنسان ، مصحوبة بالشعور الواضح ، بأنها ملقاة من طرف أعلى منفصل عن الذات الإنسانية ، وشعور آخر واضح بالطريقة التي تم فيها الإلقاء .

الشبهة حول الوحي :

هناك ارتباط وثيق بين هذا الموضوع وبحث إعجاز القرآن ، لأننا نتعرف من خلال ذلك البحث على أن القرآن ليس ظاهرة بشرية ، وبالتالي ليس من صنع محمد (ص) ، وإنما يكشف بجوانب التحدي فيه عن ارتباطه بعالم الغيب وما وراء الطبيعة ، كما أشرنا إلى ذلك في بحث إعجاز القرآن .

وعلى هذا الأساس : نجد أن مناقشة الشبهات ، التي تثار حول الوحي القرآني ، لا بد وأن تعتمد بصورة رئيسية على نتائج بحث إعجاز القرآن . ولذا فنحن حين نذكر هنا ، بعض ما يثار حول الوحي ، نقصد بذلك أن نعالج بعض التفاصيل ذات العلاقة بهذه الإثارة دون الجانب الأساسي للمسألة .

القرآن وحي نفسي لمحمد (ص) :

ولعل من أخبث الأساليب في إثارة الشبهة حول الوحي ، هو الأسلوب الذي يحاول أن يضفي على النبي محمد (ص) ، صفات الصدق والأمانة والإخلاص والذكاء ، الأمر الذي أدى به أن يتخيل نفسه أنه ممن يوحى إليه ، وهو ما يسمى بالوحي النفسي . فإن هذا الأسلوب يحاول أن يستر دوافعه المغرضة ، بمظاهر الإنصاف والمحبة والإعجاب .

وخلاصة ما قيل في صياغة هذه الشبهة : أن محمداً (ص) قد أدرك بقوة عقله الذاتية ، وبما يتمتع به من نقاء وصفاء روحي ونفسي . . بطلان ما كان عليه قومه من عبادة الأصنام ، كما أدرك ذلك أيضاً أفراد آخرون من قومه . وإن فطرته الزكية ـ بالإضافة إلى بعض الظروف الموضوعية كالفقر ـ حالت دون أن يمارس أساليب الظلم الإجتماعي من

الإضطهاد ، وأكل المال بالباطل ، أو الإنغماس بالشهوات ، وارتكاب الفواحش كالاستمتاع بالسكر والتسري وعزف القيان وغير ذلك من القبائح .

وأنه طال تفكيره من أجل إنقاذهم من ذلك الشرك القبيح وتطهيرهم من تلك الفواحش والمنكرات .

وقد استفاد من النصارى الذين لقيهم في أسفاره أو في مكة نفسها كثيراً من المعلومات عن الأنبياء والمرسلين ، ممن بعثهم اللّه في بني إسرائيل وغيرهم ، فأخرجوهم من الظلمات إلى النور . كما أنه لم يقبل جميع المعلومات التي وصلت إليه من هؤلاء النصارى لما عرض للنصرانية من أفكار الوثنية والإنحرافات ، كألوهية المسيح وأمه . وغير ذلك من البدع .

وأنه كان قد سمع أن اللّه سيبعث نبياً مثل أولئك الأنبياء من عرب الحجاز بشر به عيسى بشر به عيسى المسيح وغيره من الأنبياء ، وتولد في نفسه أمل ورجاء في أن يكون ذلك النبي الذي آن أوانه . وأخذ يتوسل إلى تحقيق هذا الأمل بالانقطاع إلى عبادة اللّه تعالى في خلوته بغار حراء .

وهنالك قوى إيمانه وسما وجدانه ، فاتسع محيط تفكيره وتضاعف نور بصيرته ، فاهتدى عقله الكبير إلى الآيات

والدلائل البينة في السماء والأرض ، على وحدانية اللّه سبحانه خالق الكون ومدبر أموره . وبذلك أصبح أهلاً لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور .

ثم ما زال يفكر ويتأمل ويتلقب بين الآلام والآمال ، حتى أيقن أنه هو النبي المنتظر ، الذي يبعثه اللّه لهداية البشرية ، وتجلى له هذا الاعتقاد في الرؤى المنامية ، ثم قوى حتى صار يتمثل له الملك يلقنه الوحي في اليقظة .

وأما المعلومات التي جاءته من هذا الوحي ، فهي مستمدة في الأصل من تلك المعلومات ، التي حصل عليها من اليهود والنصارى ، ومما هداه إليه عقله وتفكيره ، في التمييز بين ما يصح منها وما لا يصح . ولكنها كانت تتجلى وكأنها وحي السماء ، وخطاب الخالق عز وجل ، يأتيه بها الناموس الأكبر ، الذي كان ينزل على موسى بن عمران وعيسى بن مريم ، وغيرهما من النبيين عليهم السلام .

مناقشة الشبهة :

وإذا أردنا أن ندرس هذه النظرية (نظرية الوحي النفسي) ، لا نجدها تصمد أمام النقد والمناقشة العلمية ، إذ يمكن أن يلاحظ عليها من خلال جوانب ثلاثة :

الأول : أن الدلائل التاريخية ، وطبيعة الظروف التي مر بها النبي (ص) تأبى التصديق بهذه النظرية وقبولها .

الثاني : إن المحتوى الداخلي للظاهرة القرآنية ، بما يضم من تشريع وأخلاق وعقائد وتأريخ ، لا يتفق مع هذه النظرية في تفسير الوحي القرآني .

الثالث : إن موقف النبي محمد (ص) من الظاهرة القرآنية ، يشهد بوضوح على رفض تفسير الظاهرة القرآنية بنظر الوحي النفسي .

أ ـ الدلائل التاريخية تناقض نظرية الوحي النفسي :

لقد ذكر السيد رشيد رضا ـ بصدد مناقشته للمقدمات التاريخية وغيرها التي رتبها (درمنغام لعرض نظرية الوحي النفسي ـ عشر ملاحظات : وسوف نقتصر على تلخيص بعضها .

الأولى : إن أكثر المقدمات التي بنى عليها أصحاب النظرية بنيانهم ونظريتهم ، لا تقوم على أساس تاريخي صحيح ، وإنما تنطلق من نقطة مفروضة على البحث بشكل مسبق ، وهي أن الوحي القرآني ليس وحياً منفصلاً عن الذات المحمدية ، الأمر الذي كان يدعو أصحاب النظرية إلى

اختلاق الحوادث والأخبار ، أو تخيلها من أجل إكمال الصورة ووصل بعض الحلقات ببعضها الآخر .

ومن الأمثلة على ذلك ما يذكرونه من تفاصيل في مسألة لقاء الراهب بحيراً مع محمد (ص) وهو بصحبة عمه أبي طالب ، الأمر الذي يدعوهم إلى الإستنتاج وافتراض محادثات دينية وفلسفية معقدة .

وما يذكرونه أيضاً بصدد تعليل إطلاعه على أخبار عاد وثمود ، من أنه كان نتيجة مروره بأرض الأحقاف ، بالرغم من هذه الأرض لا تقع على الطريق الاعتيادي لمرور القوافل التجارية ، كما أن التاريخ لم يذكر لنا مرور النبي بها إلى غير ذلك من الأحداث والقضايا .

الثانية : إن افتراض تعلم النبي محمد (ص) من نصارى الشام وغيرهم لا يتفق مع الحقيقة التاريخية التي تحدثنا عن الحيرة والتردد في موقف المشركين من رسول الله . في محاولتهم لتفسير ظاهرة الرسالة لأن مثل هذه العلاقة لا يمكن التستر عليها أمام أعداء الدعوة من المشركين وغيرهم ، الذين عاصروه وعرفوا أخباره وخبروا حياته العامة بما فيها من سفرات ورحلات . وبالرغم من أن هؤلاء لم يمسكوا عن إطلاق شتى التهم والأراجيف ، وافترضوا في الوحي الفروض

المتعـددة ومنهـا فـرض التعلم والتلقي من أشخـاص معينـين . كـالـرومي الحـداد في مكـة[1] ، ولكن مـع ذلـك كله لم يكن ليفـرضوا أن يكـون قد تعلم من نصـارى الشام أو غيـرهم من أصحاب الديانات .

الثالثة : إنه لم يعرف عن الـرسول محمـد (ص) . أنه كـان ينتـظر أن يفاجىء بـالوحي . أو يـأمل أن يكـون هو الـرسـول المنتـظر . لينمو ويتـطور هذا الأمـل في نفسه . فيصبـح واقعـاً نفسياً . بالرغم من تدوين كتب السيرة النبويـة لأدق الأحداث والتفصيلات عن حياة الرسول الشخصية .

ولعـل من القـرائن التـاريخيـة التي تشهـد بكـذب هـذا الافتـراض : هو مـا ذكـرتـه كتب السيـرة من اضـطراب النبي وخوفه . حين فاجأه الوحي في غار حراء .

الرابعة : أن هذه النظرية تفرض أن يكـون إعلان النبـوة . نتيجـة مـرحلة معينـة من التكـامـل العقـلي والنفسي . ونتيجـة مـرحلة طويلة من المعـانـاة والتفكـير والتـأمـل والحسـاب . . . وهـذا يستلزم بطبيعـة الحال . أن ينـطلق الرسـول في اللحـظة الأولى من دعـوته إلى طـرح مفـاهيمـه وأفكـاره ومنـاهجـه عن

---

(١) ﴿ ولقـد نعلم أنهم يقـولـون إنمـا يعلمـه بشر لسـان الـذي يلحـدون إليـه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ النحل ١٠٣ .

الكون والحياة والمجتمع بجوانبه المتعددة . لأن المفروض أن الصورة كانت متكاملة عنده نتيجة التفكير الطويل . . . مع أن التاريخ يؤكد أن أسلوب الدعوة وطريقتها كان يختلف عن ذلك تماماً وإن البداية هي الخوف والإضطراب ثم الدعوة إلى التوحيد ومن ثم الانطلاق إلى المجالات الأخرى بشكل تدريجي مع ما كان يتخلل ذلك من ركود وانقطاع في الوحي .

ب ـ التحدي الداخلي للظاهرة القرآنية يناقض نظرية الوحي النفسي :

إن لسعة النظرية القرآنية وآفاقها المتعددة ومجالاتها المتشعبة . أهمية كبرى في رفض نظرية الوحي النفسي . إذ أن هذا الإتساع والشمول لا تتفق مع طبيعة المصادر التي تفرضها النظرية . ويتضح ذلك عندما نلاحظ الأمور التالية :ـ

١ ـ إن الموقف العام للقرآن الكريم تجاه الديانتين اليهودية والمسيحية هو موقف المصدق لهما . والمهيمن عليهما فقد صدق القرآن الكريم الأصل الإلهي لهاتين الديانتين وارتباطهما بالمبدأ الأعلى . كما جاء مهيمناً ورقيباً وحاكماً على ما فيها من صلات .

وجاءت هذه الرقابة دقيقة شاملة . فلم تترك مفهوماً أو حكماً أو حادثة إلا ووضعت المقياس الصحيح فيه . ولا يمكن أن نتصور محمداً (ص) ـ وهو يأخذ عن أهل الكتاب معالم شريفة ـ يتمكن أن يصفهم بالجهل والتحريف والتبديل يمثل هذا اليقين والثبات ويوضح الموقف الصحيح في المسائل الكبرى التي اختلفوا فيها أو خالفوا الواقع الصحيح للديانة ثم تأتي نظريته بعد ذلك كاملة شاملة ودقيقة ليس فيها تناقض ولا اختلاف . . !!ـ ولكن محمداً لم يكن قد أخذ منهم شيئاً . وإنما تلقى كل ذلك عن الوحي الإلهي الذي جاء مصداقاً لما سبقه من الوحي . ومهيمناً على الانحراف والتحريف معاً .

٢ ـ ونجد القرآن أيضاً يخالف التوراة والإنجيل في بعض الأحداث التاريخية ، فيذكرها بدقة متناهية ويتمسك بها بإصرار ، في الوقت الذي كان بإمكانه أن يتجاهل بعضها على الأقل ، تفادياً للإصطدام بالتوراة والإنجيل .

ففي قصة موسى : يشير القرآن إلى أن التي كفلت موسى هي أمرأة فرعون ، مع أن سفر الخروج يؤكد أنها كانت ابنته . كما أن القرآن يذكر غرق فرعون بشكل دقيق لا يتجاهل ، حتى مسألة نجاة بدن فرعون من الغرق مع موته

وهلاكه ﴿ **فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون** ﴾ يونس ٩٢ . في الوقت الذي نجد التوراة تشير إلى غرق فرعون بشكل مبهم ، ويتكرر نفس الموقف في قضية العجل حيث يذكر التوراة أن الذي صنعه هو هارون ، وفي قصة ولادة مريم للمسيح عليهما السلام وغيرهما من القضايا .

وليس شأن التاريخ شأن النظريات العلمية والحلول الاجتماعية التي قد يتبنى العالم فيها وجهة نظر معينة ويصر عليها ويرى بطلان غيرها من وجهات النظر . ليمكن أن نقول في تفسير هذا الموقف لمحمد (ص) من التوراة والإنجيل أنه رأى خطأ وجهة النظر اليهودية والنصرانية فكذبهما وخالفهما في إصدار الأحكام أو وضع النظريات والحلول . وإنما التاريخ تعبير حقيقي عن سير الأحداث في الواقع الموضوعي فلا يصح لمحمد (ص) وهو الإنسان الأمين الذكي أن يذكر هذه التفاصيل بصورة مؤكدة ، فيصطدم بالتوراة والإنجيل دون سبب معقول ، لولا أن يكون قد تلقى ذلك عن طريق الوحي الإلهي الذي لا يستطيع مخالفته .

٣ ـ إن سعة التشريع الإسلامي وعمقه وشموله للمجالات المختلفة من الحياة ، مع دقة التفاصيل التي تناولها ،

والإنسجام الكبير بين هذه التفصيلات ، برهان واضح على تلقيه ذلك عن طريق الوحي . إذ لم يكن لمحمد وهو الإنسان الأمي ، الذي كان يعيش في ذلك العصر المظلم ، كما أنه قضى أكثر حياة دعوته في خضم الصراع الإجتماعي . . ليتمكن كإنسان أن يفعل ذلك لولا أن يكون قد تلقى ذلك عن طريق الوحي والسماء .

ج ـ موقف النبي من الظاهرة القرآنية شاهد على رفض نظرية الوحي النفسي[1] .

لقد كان النبي محمد (ص) ، يدرك بشكل واضح ، الانفصال التام بين ذاته المتلقية والذات الإلهية الملقية من أعلى . وهذا الإدراك هو حقيقة الوحي الذي أشرنا إليه سابقاً ، وقد صور الرسول (ص) هذا الوعي والإدراك في مناسبات متعددة ، وأوضحه للمسلمين فيما روي عنه حيث قال : (أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال . وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول) .

---

(١) لخصنا هذا الموضوع عن الدكتور صبحي الصالح في كتابه مباحث علوم القرآن ٢٨ ـ ٣٨ وهو بدوره أخذه كما يظهر من كتابة الدكتور محمد عبد اللّه دراز في كتابه (النبأ العظيم) ومالك بن نبي في كتابه (الظاهرة القرآنية) .

وقد انعكس هذا الشعور الواعي بالانفصال في الوحي ، بين الذات الآمرة المعطية والذات المخاطبة المتلقية . . على الظاهرة القرآنية نفسها بحيث تجلى في القرآن الكريم في مظاهر عديدة نذكر منها الأشكال الثلاثة التالية :

الشكل الأول :

الصورة التي يبدو فيها النبي من خلال الظاهرة القرآنية عبداً ضعيفاً للّه سبحانه ، يقف بين يدي مولاه يستمد منه العون ويطلب منه المغفرة ويمتثل أوامره ، ونواهيه ، ويتلقى منه العقاب بمختلف مراتبه وأشكاله .

والأمثلة القرآنية على ذلك كثيرة :

فالقرآن يصور محمداً في صورة الإنسان المطيع الذي لا يملك لنفسه شيئاً ، ويخاف ربه إن عصاه . فيلتزم الحدود التي وضعها له ويرجو رحمته وليس من شيء يأتيه إلا من قبل ربه ، فهو يعترف بالعجز المطلق تجاه إرادة اللّه أو تبديل حرف من القرآن :

﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا إئت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي أن أتبع إلا ما يوحى إلي . إني أخاف إن عصيت

ربي عذاب يوم عظيم . قل لو شاء اللّه ما تلوته عليكم ولا ادراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾[١] .

﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي إنما إلهكم إله واحد﴾[٢] .

﴿ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء اللّه ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ﴾[٣] .

﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن اللّه ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك ان اتبع إلا ما يوحى إلي ﴾[٤] .

ومن يقرأ هذه الآيات القرآنية ونظائرها ويترك لوجدانه الحكم ، لا يسعه إلا أن يقتنع من أعماق قلبه ونفسه ، بالفرق بين الذات الإلهية الآمرة الملقية والذات المحمدية المتلقية .

ثم يزداد وضوحاً بين ذات اللّه المتكلم منزل الوحي وصفاته وبين ذات رسوله المخاطب متلقي الوحي وصفاته ،

---

(١) يونس ١٥ ـ ١٦ .

(٢) الكهف ١١ .

(٣) الأعراف : ١١٨ .

(٤) الأنعام : ٥٠ .

في الآيـات التي يعتب اللّه فيهـا عــلى نبيـه عتــابـاً خفيفــاً أو شديداً ، أو يعلمـه فيها بعفـوه عنه وغفـرانه مـا تقدم من ذنبـه وما تأخر .

فمن العتاب المقترن بالعفو خطابه لـرسولـه في شأن من أذن لهم بـالقعـود عن القتـال في غـزوة تبـوك ﴿ **عفـا اللّه عنــك لم اذنت لهم حتى يتبين لك الـذين صدقـوا وتعلم الكاذبـين** ﴾[1] ﴿ **ليغفر لك اللّه ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾[2] .

وأشــد من هذا مـا يـوجـه إلى الـرســول (ص) من الإنــذار والتهديد في مثل قوله تعالى : ﴿ **يـا أيها الـرسول بلغ مـا أنزل إليك من ربك وإن لم تفعـل فما بلغت رسـالته واللّه يعصمـك من النـاس** ﴾ وقولـه تعالى ﴿ **وإن كـادوا ليفتنونـك عن الـذي أوحينـا إليك لتفتـري علينا غيـره إذاً لاتخذوك خليـلاً . ولولا أن ثبتنـاك لقـد كـدت تـركن إليهم شيئـاً قليـلاً إذن لاذقنــاك ضـعف الحيــاة وضعـف الممــات ثـم لا تجــد لــك علينــا نصيرا** ﴾[3] .

وهذا الإنذار يبلغ القمة ، فيستصغر بعده كل تهـديد وكـل

---

(١) التوبة : ٤٣ .

(٢) الفتح : ٢ .

(٣) الإسراء : ٧٤ ـ ٧٥ .

وعيـد حين يقـول اللّه : ﴿ **ولو تقـول علينـا بعض الأقـاويـل لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنـا منه الـوتين فـما منكم من أحد عنه حاجزين** ﴾[1] .

ومن خـلال هذه الآيـات المتوعـدة المنـذرة . وتلك العـاتبـة المؤدبة يبدو لنـا رسول اللّه (ص) مخلوقـاً ضعيفاً بـين يدي ربـه ذي القـدرة القاهـرة . والقـوة الكبـرى والإرادة التي لا معقب لها .

ويبـدو لنا أيضـاً : كامـل الوعي للفـرق بين ذاتـه المـأمـورة وذات اللّه الآمـرة ، وبوعيـه الكامـل هـذا كـان عليـه السـلام يفـرق بوضـوح بين الـوحي الذي ينـزل عليـه وبـين أحـاديثـه الخاصة التي كان يعبر عنهـا بإلهـام من اللّه . لذلـك فهي عليه السـلام أول العهد لنـزول الوحي عن تـدوين شيء عنه سـوى القـرآن لكي يحفظ للقـرآن صفتـه الـربـانيـة . ويحـول دون اختـلاطه بشيء ليست لـه هذه الصفـة القدسيـة بينما كـان عند نزول الوحي ـ ولـو آية أو بعض آيـة ـ يدعـو أحد الكتبـة فوراً ليدون ما نزل من القرآن .

الشكل الثاني :

يبـدو النبي في القـرآن الكـريم بمـظهـر الخـائف من ضيـاع

---

(١) الحاقة : ٤٤ ـ ٤٧ .

بعض الآيات القرآنية ونسيانها ، الأمر الذي كان يدعوه إلى أن يعجل بقراءة القرآن ، قبل أن يقضى إليه وحيه ويأخذه بترديده ويجهد نفسه وفكره من أجل أن لا يفوته شيء من ذلك ، ويتضح هذا في قوله تعالى ﴿ **ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علما** ﴾[1] ﴿ **لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه** ﴾[2] .

ولا يسعنا إزاء هذه الحقيقة إلا أن نعترف باستقلال ظاهرة الوحي عن ذات النبي استقلالاً مطلقاً . وتفردها عن العوامل النفسية تفرداً كاملاً فالإنسان الذي يتبع الوحي من نفسه وذاته لا يشعر بهذه الحاجة الشديدة الملحة إلى التظاهر بالوحي وتذكره خوفاً من ذهابه ونسيانه لأن هذا الواقع يجعله يدرك لا شعورياً أن الوحي طوع إرادته واختياره مع أن النبي نراه من خلال الواقع التاريخي يجهد نفسه ويضطرب قلبه خوفاً من أن يفوته شيء من الوحي .

ثم نجد النبي لا يملك حتى استخدام ذاكرته في حفظ القرآن ، بل اللّه يتكفل بتحفيظه إياه ، وقانون التذكر نفسه

---

(١) طه : ١١٤ .

(٢) القيامة : ١٦ ـ ١٩ .

بطل الآن سحره وعفا أثره تجاه إرادة اللّه . فكيف لا يعني النبي بعد هذا كله . الفرق العظيم بين ذاته المأمورة وذات اللّه الآمرة وهو يرى بنفسه أنه لا يملك من أمر نفسه شيئاً ؟!

الشكل الثالث :

يبدو النبي من خلال تاريخ نزول القرآن أنه كان مقتنعاً بأن التنزيل القرآني مصحوب بإمحاء إرادته الشخصية ، وأنه منسلخ عن الطبيعة البشرية حتى ما بقي له عليه الصلاة والسلام اختيار فيما ينزل إليه أو ينقطع عنه . فقد يتتابع الوحي ويحمى حتى يشعر أنه يكثر عليه . وقد يفتر عنه وهو يشعر أنه أحوج ما يكون إليه .

فقد كان الوحي ينزل على قلبه صلوات اللّه في أحوال مختلفة :

إنه ليأوي إلى فراشه فما يكاد يغفو إغفاءة حتى ينهض ويرفع رأسه مبتسماً فقد أوحيت إليه سورة الكوثر : الخير الكثير . وإنه ليكون وادعاً في بيته وقد بقي من الليل ثلثه . فنزل عليه آية التوبة في الثلاثة الذين خلفوا ﴿ **حتى إذا ذاقت عليهم الأرض بما رحبت . وضاقت عليهم أنفسهم . وظنوا أن لا ملجأ من اللّه إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إنه هو**

التواب الرحيم ﴾[1] .

إن الـوحي لينزل عـلى قلب النبي في الليل الـدامس والنهار الأضحيان وفي البرد القارص أو لطفي الهجـير ، وفي استجمام الحضر أو أثناء السفر ، وفي هدأة السوق أو وطيس الحرب .

ثم ها هو ذا الوحي ينقطع عن النبي ، وهـو أشد مـا يكون إليه شوقاً وله طلباً ، فبعد أن نـزل عليه جبـريل بـأوائل سـورة العلق : ﴿ **إقـرأ باسم ربـك الذي خلق** ﴾ فـتر الوحي ثـلاث سنـوات فحزن النبي . ثم حمى الـوحي وتتابـع فاستبشر النبي وتبـدل انتظاره الحـزين فرحـة غامـرة ، وأيقن أن هذا الـوحي الـذي استعصى عليه ولم يـوافه طـوع إرادتـه مستقـل عن ذاتـه خـارج عن فكره ، فـاستقر في ضميـره الواعي أن مصـدر هذا الوحي هو اللّه علام الغيوب .

ومن ذا الـــذي ينسى كيف أبـطأ الـــوحي بعـــد (حـــديث الافـك) الذي رمى بـه المنافقـون زوج النبي (ص) ، وأثـاروا بـه حولهـا الفضيحة حتى عصفت بقلب الـرسول الـريبة . من ذا الذي لا يدرك أن هـذه المدة التي تصـرمت على الحـادثة من غير أن يتلقى النبي خلالها وحياً ، كـانت أثقل عليـه من سنين طويلة . بعد أن خاض المنافقون في زوجه خـوضاً بـاطلاً ؟ فـلما

---

(١) البقرة :

بال النبي الذي كان فريسة للشك والقلق يظل صامتاً وينتظر واجماً ويتربص حتى نزلت آيات النور تبرىء أم المؤمنين .

وما له لا يسرع إلى التدخل في أمر السماء ، فيرتدي مسوح الرهبان ، ويهيء الأسجاع ويطلق البخور ، ويبرىء زوجه من قذف القاذفين ؟ .

ولقد كان النبي يتحرق شوقاً إلى تحويل القبلة إلى الكعبة ، وظل يقلب وجهه في السماء ستة عشر شهراً ، أو سبعة عشر شهراً لعل الوحي ينزل عليه بتحويل القبلة إلى البيت الحرام ولكن رب القرآن لم ينزل في هذا التحويل قرآناً رغم تلهف رسوله الكريم إليه ، إلا بعد قرابة عام ونصف العام ﴿ **قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام** ﴾[1] .

فلمَ لم يسعف النبي نفسه بوحي عاجل يحقق ما يصبو إليه ويتمناه ؟ . إن الوحي ينزل ويكثر على محمد حين يشاء رب محمد . ويفتر إذا شاء له رب محمد الإنقطاع ، فما تنفع التعاويذ والأسجاع ولا تقدم عواطف محمد ولا تؤخر في أمر السماء .

---

(١) البقرة : ١٤٤ .

وحين نلتفت إلى هذه الأشكال الثلاثة بصورها المختلفة ونضيف إليها الجانبين الآخرين ، لا يبقى لدينا مجالا لأي تردد في شأن حقيقة الظاهرة القرآنية ، وانفصالها عن الذات المحمدية ، وبطلان الوحي النفسي وما إليه من شبهات قد تثار .

الشبهة حول المكي والمدني

لقد كان موضوع المكي والمدني من جملة الموضوعات القرآنية التي أثيرت حولها الشبهة والجدل . وتنطلق الشبهة هنا من أساس أن الفروق والميزات التي تلاحظ بين القسم المكي من القرآن الكريم والقسم المدني منه . . تدعو في نظر بعض المستشرقين إلى الاعتقاد بأن القرآن قد خضع لظروف بشرية مختلفة اجتماعية وشخصية تركت آثارها على أسلوب القرآن وطريقة عرضه وعلى مادته والموضوعات التي عنى بها .

ويجدر بنا قبل أن ندخل في الحديث عن الشبهات ومناقشتها أن نلاحظ الأمرين التاليين لما لهما من تأثير في فهم البحث ومعرفة نتائجه .

الأول : أنه لا بد لنا أن نفرق منذ البدء بين فكرة تأثر القرآن الكريم وانفعاله بالظروف الموضوعية من البيئة وغيرها بمعنا انطباعه بها ، وبين فكرة مراعاة القرآن لهذه الظروف

بقصد تأثيره فيها وتطويرها لصالح الدعوة . فإن الفكرة الأولى تعني في الحقيقة بشرية القرآن حيث تفرض القرآن في مستوى الواقع المعاش وجزءاً من البيئة الإجتماعية يتأثر بها كما يؤثر فيها بخلاف الفكرة الثانية فإنها لا تعني شيئاً من ذلك لأن طبيعة الموقف القرآني الذي يستهدف التغير وطبيعة الأهداف والغايات التي يرمي القرآن إلى تحقيقها قد تفرض هذه المراعاة حيث قد تحدد الغاية والهدف طبيعة الأسلوب الذي يجب سلوكه الموصول إليها ولكن ضمن المعالم الرئيسية للهدف لتصبح الأساليب مشروعة .

فهناك فرق بين أن تفرض الظروف والواقع نفسها على الرسالة وبين أن تفرض الأهداف والغايات التي ترمي الرسالة إلى تحقيقها من خلال الواقع أسلوباً ومنهجاً للرسالة . لأن الهدف والغاية ليس شيئاً منفصلاً عن الرسالة ليكون تأثيرهما على أسلوبها تأثيراً مفروضاً من الخارج .

فنحن في الوقت الذي نرفض فيه الفكرة الأولى بالنسبة إلى القرآن نجد أنفسنا لا تأبى التمسك بالفكرة الثانية في تفسير الظواهر القرآنية المختلفة ، سواء ما ترتبط منها بالأسلوب القرآني أو الموضوع والمادة المعروضة فيه .

الثاني : أن تفسير وجود الظاهرة القرآنية لا بد أن يعتبر

هو المصدر الأساسي في جميع الأحكام التي تصدر على محتوى القرآن وأسلوب العرض فيه فقد تكون النقطة الواحدة في القرآن الكريم سبباً في إصدار حكمين مختلفين نتيجة للإختلاف في تفسير أصل وجود القرآن .

وفيما يلي نذكر بعض الأمثلة التي يتجلى فيها مدى الفرق بين دراسة القرآن بوصفه كتاباً إلهياً للهداية ودراسته بوصفه ظاهرة بشرية تتأثر بالمجتمع وتتفاعل مع عوامله ومؤثراته .

أ ـ ففي إقرار القرآن لعدد من الأعراف وألوان السلوك التي كانت سائدة بين العرب قبل بزوغ نور الرسالة الجديدة قد يخيل لمن ينطلق من قاعدة خاطئة ويحاول أن يفسر وجود الظاهرة القرآنية تفسيراً بشرياً : أن ذلك الإقرار يعبر عن تأثر القرآن بالمجتمع الذي وجد فيه ولكن هذا لا معنى له حين ننطلق من القاعدة الصحيحة ونفهم القرآن الكريم بوصفه كتاباً إلهياً للهداية وبناء الإنسانية بالصورة التي تعيد إليها نظرتها النقية وتوجهها نحو أهدافها الحقيقية الكبرى .

بل نستطيع على هذه القاعدة الصحيحة أن نفهم ذلك الإقرار من القرآن فهماً صحيحاً إذ ليس من الضروري لكتاب هداية من هذا القبيل أن يشجب كل الوضع الذي كانت الإنسانية عليه قبله لأن الإنسانية مهما تفسد وتنحرف عن

طريق الفطرة والأهداف الحقيقية الكبرى فهي لا تفسد كلها بل تبقى في العادة جوانب صالحة في حياة الإنسانية تمثل فطرة الإنسان تجاربه الخيرة . فمن الطبيعي للقرآن أن يقر بعض الجوانب ويشجب أكثر الجوانب في عملية التغيير العظيم التي مارسها . وحتى هذا الذي أقره وضعه في إطاره الخاص وربطه بأصوله وقطع صلته بالجاهلية وجذورها .

ب ـ وفي تدرج القرآن الكريم في التشريع قد يخيل لمن ينطلق من القاعدة الخاطئة التي تقول ببشرية القرآن : إن هذا التدرج يعبر عن عوامل التطور في الظاهرة القرآنية .

ولكنه في الواقع وعلى أساس المفهوم الصحيح عن القرآن يرتبط بطبيعة عملية البناء التي يمارسها القرآن لأن القرآن لم ينزل ليكون كتاباً علمياً يدرسه العلماء وإنما نزل لتغيير الإنسانية وبنائها من جديد على أفضل الأسس وعملية التغيير تتطلب التدرج ولا يمكن أن تتم دفعة واحدة .

ج ـ وفي القرآن الكريم نجد كثيراً من التشريعات والمفاهيم الحضارية التي كانت متبناة من قبل الشرائع السماوية الأخرى كبعض أحكام القصاص والحج مثلاً . وقد يخيل لمن يدرس القرآن على أساس القاعدة الخاطئة التي تقول ببشرية القرآن : قد تأثر في ذلك بهذه الديانات على أساس

تـأثـير المجتمـع والبيئـة التي نـزل القـرآن فيهـا بهـذه الأديـان فانعكس هذا الانفعال بالثاني على القرآن نفسه .

ولكن الـواقع ـ وعـلى الأساس المفهـوم الصحيح أن القـرآن يمثـل الإسلام الـذي هو امتـداد لرسـالات السماء وخـاتمتهـا . ومن الطبيعي أن تشمل الرسالـة الخاتمـة على الكثـير مما احتـوته الرسالات السماوية السابقة . وتنسـخ الجوانب التي لا تتـلائم مـع التطورات النفسيـة والفكريـة والإجتمـاعيـة للمـرحلة التي وصلت إليهـا الإنسانيـة بشكل عـام . لأن مصدر الـرسـالات هذه جميعاً شيء واحد وهو اللّه سبحانه . خصـوصاً إذا أخـذنا بنظر الاعتبار إيمان الإسلام بهـذه الوحـدة في مصدر الـرسالات وتأكيده عليها .

ومن أجـل ذلك فنحن لا نسـوغ لأنفسنا أن نقبـل حكماً مـا في تفسـير نقطة حـول القـرآن الكـريم ، لمجـرد انسجـام هـذا الحكم مـع تلك النقطة بـل لا بد لنـا أن ننظر أيضـاً ـ بشكـل مسبق ـ إلى مدى انسجام الحكم مـع التفسير الصحيـح لوجـود الظاهرة القرآنية نفسها .

وقد عرفنا في بحثنا السابق عن الوحي أن الـظاهرة القـرآنية ليست نتاجاً شخصياً لمحمد وبالتالي ليست نتاجاً بشـرياً مـطلقاً وإنما هي نتاج إلهي مرتبط بالسماء . وعلى هـذا الأساس يمكننا

أن نجزم بشكل مسبق ببطلان جميع الشبهات التي تثار حول الملكي والمدني لأنها في الحقيقة تفسيرات لظاهرة الفرق بين المكي والمدني على أساس أن القرآن الكريم نتاج بشري .

وبالأحرى يجب أن يقال : إن شبهات المكي والمدني ترتبط في الحقيقة بالشبهات التي أثيرت حول الوحي ارتباطاً موضوعياً لأنها ترتبط بفكرة إنكار الوحي ولذا فسوف نناقش هذه الشبهات بعد التحدث عنها لإيضاح بطلانها من ناحية وتقديم التفسير الصحيح الفرق بين المكي والمدني بعد ذلك من ناحية ثانية .

الشبهة حول المكي والمدني

الشبهة حول المكي والمدني جانبان : جانب يرتبط بالأسلوب القرآني فيها وجانب يرتبط بالمادة والموضوعات التي عرض القرآن لها في هذين القسمين وفي كل من القسمين تصاغ الشبهة على عدة أشكال نذكر منها صياغتين لكل واحد من القسمين .

أ ـ أسلوب المكي يمتاز بالشدة والعنف والسباب

فقد قالوا : إن أسلوب القسم المكي من القرآن يمتاز عن القسم المدني بطابع الشدة والعنف بل السباب أيضاً . وهذا

يدل على تأثر محمد بالبيئة التي كان يعيش فيها لأنها مطبوعة بالغلظة والجهل . ولذا يزول هذا الطابع عن القرآن الكريم عندما ينتقل محمد إلى مجتمع المدينة المنورة الذي تأثر فيه ـ بشكل أو بآخر ـ بحضارة أهل الكتاب وأساليبهم وتستشهد الشبهة بعد ذلك لهذه الملاحظة بالسور والآيات المكية المطبوعة بطابع الوعيد والتهديد والتعنيف أمثال : سورة (المسد) وسورة (العصر) وسورة (التكاثر) وسورة (الفجر) وغير ذلك .

ويمكن أن نناقش هذه الشبهة :

أولاً : بعدم اختصاص القسم المكي من القرآن الكريم بطابع الوعيد والإنذار دون القسم المدني بل يشترك المكي والمدني بذلك . كما إن القسم المدني لا يختص أيضاً كما قد يفهم من الشبهة بالأسلوب اللين الهادىء الذي يفيض سماحة وعفواً بل نجد ذلك في المكي والشواهد القرآنية على ذلك كثيرة .

فمن القسم المدني الذي اتسم بالشدة والعنف قوله تعالى **﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾**[1] .

---

(١) البقرة : ٢٤ .

وقوله تعالى : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ﴾[1] . ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللّه وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من اللّه ورسوله وإن تبتم فلكم رؤس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من اللّه شيئاً وأولئك هم وقود النار . كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم اللّه بذنوبهم واللّه شديد العقاب . قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ﴾[3] .

كما نجد في القسم المكي ليناً وسماحة كما جاء في قوله تعالى ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى اللّه وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين . ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾[4] .

وقوله تعالى : ﴿ فما أوتيتم من شيء فمتاع الحيوة الدنيا

---

(١) ، (٢) البقرة : ٧٥ و ٢٧٨ ـ ٢٧٩ .

(٣) آل عمران : ١٠ ـ ١٢ .

(٤) فصلت : ٣٣ ـ ٣٥ .

وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون . والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون . والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل. إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم . ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم . لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جنا حك للمؤمنين ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم)[3] .

وثانياً : إنه ليس في القرآن الكريم سباباً وشتماً . كيف ؟ وقد نهى القرآن نفسه عن السب والشتم حيث قال تعالى :

---

(١) الشورى : ٣٦ - ٤٣ .

(٢) الحجر : ٨٧ - ٨٨ .

(٣) الزمر : ٥٣ .

﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون اللّه فيسبوا اللّه عدواً بغير علم ﴾[1]

وليس في سورة (المسد) أو (التكاثر) سب أو بذاءة ـ كما يحاول المستشرقون أن يقولوا ذلك ـ وإنما فيهما تحذير ووعيد بالمصير الذي ينتهي إليه أبو لهب والكافرون باللّه .

نعم ، يوجد في القرآن الكريم تقريع وتأنيب عنيف وهو موجود في المدني كما هو في المكي وإن كان يكثر وجوده في المكي بالنظر لمراعاة ظروف الإضطهاد والقسوة التي كانت تمر بها الدعوة ، الأمر الذي اقتضى أن يواجه القرآن ذلك بالعنف والتقريع ـ أحياناً ـ لتقوية معنويات المسلمين من جانب آخر كما سوف نشير إليه قريباً .

ومن هذا التقريع في السور المدنية قوله تعالى :

﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم اللّه على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم . ومن الناس من يقول آمنا باللّه وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . . إلى قوله تعالى صم بكم عمي فهم لا يعقلون ﴾[2] .

(١) الأنعام : ١٠٨ .
(٢) البقرة : ٦ ـ ١٨ و ٦١ و ٩٠ و ١٧١ .

وقوله تعالى ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من اللّه ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات اللّه ويقتلون النبيين بغير الحق . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾[١] وقوله ﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل اللّه من فضله على من يشاء من عباده فباؤا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين ﴾[٢] .

وقوله تعالى ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم اللّه ويلعنهم اللاعنون ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ إذ قال اللّه يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فاحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون . فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴾[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ قل هل أونبئكم بشر من ذلك مثوبة عند اللّه من لعنه اللّه وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير

---

(١)،(٢)،(٣) البقرة ٦١ و ٩٠ و ١٥٠ .

(٤) آل عمران : ٥٥ و ٥٦ .

وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل ﴾[1] .

وقوله تعالى : **﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ﴾**[2] .

ب ـ أسلوب القسم المكي يمتاز بقصر السور والآيات :

وقالوا أيضاً إن من الملاحظ قصر السور والآيات في القسم المكي على عكس القسم المدني الذي جاء بشيء من التفصيل والإسهاب . فنحن نجد أن السور المكية جاءت قصيرة ومعروضة بشكل موجز في الوقت الذي نجد في القسم المدني سورة البقرة وآل عمران والنساء وغيرها من السور الطوال .

وهذا يدل على انقطاع الصلة بين القسم المكي والقسم المدني وتأثرهما بالبيئة التي كان يعيشها محمد (ص) فإن مجتمع مكة لما كان مجتمعاً أمياً لم يكن بقدرته التبسط في شرح المفاهيم وتفصيلها وإنما أتته القدرة على ذلك عندما أخذ يعيش مجتمع المثقفين المتحضر في يثرب .

وتناقش هذه الشبهة بالأمرين التاليين :

---

(١) ، (٢) المائدة : ٦٠ و ٦٤ .

الأول : أن القصر والإيجاز ليس مختصاً بالقسم المكي بل توجد في القسم المدني سور قصيرة أيضاً كالنصر والزلزلة والبينة وغيرها . كما أن الطول والتفصيل ليس مختصاً بالقسم المدني بل توجد في المكي أيضاً سور طويلة كالأنعام والأعراف .

وقد يقصد من اختصاص المكي بالقصر والإيجاز إن هذا الشيء هو الغالب الشائع فيه .

وقد يكون هذا صحيحاً ولكنه لا يدل بوجه من الوجوه على انقطاع الصلة بين القسمين المذكورين من القرآن الكريم لأنه يكفي في تحقيق هذه الصلة أن يأتي القرآن الكريم ببعض السور الطويلة المفصلة في القسم : المكي كدليل على القدرة والتمكن من الإرتفاع إلى مستوى التفصيل في المفاهيم والموضوعات . بالإضافة إلى أن من الملاحظ وجود آيات مكية قد أثبتت في السور المدنية وبالعكس وفي كل من الحالتين نجد التلاحم والإنسجام في السورة وكأنها نزلت مرة واحدة الأمر الذي يدل بوضوح على وجود الصلة التامة بين القسمين .

الثاني : إن الدراسات اللغوية التي قام بها العلماء المسلمون وغيرهم دلت على أن الإيجاز يعتبر مظهراً من مظاهر

القـدرة الخارقـة على التعبـير وهو بـالتالي من مـظاهـر الإعجـاز القـرآني . خصوصـاً إذا أخذنـا بعـين الإعتبـار أن القـرآن قـد تحـدى العرب بـأن يأتـوا بسورة من مثله حيث يكـون التحدي بالسورة القصيرة أروع وأبلغ منه حين يكون بسورة مفصلة .

ج ـ لم يتناول القسم المكي في مادته التشريع والأحكام

وقـالـوا : إن القسم المكي لم يتنـاول ـ فيـما تـنـاول من مـوضوعـات ـ جانب التشـريع من أحكـام وأنظمـة بينما تنـاول القسم المـدني هـذا الجـانب من التفصيـل . وهـذا يعبـر عن جـانب آخر من التـأثر بـالبيئة والـظروف الإجتمـاعيـة حيث لم يكن مجتمـع مكـة مجتمعـاً متحضـراً ولم يكن قـد انفتـح عـلى معـارف أهل الكتـاب وتشريعـاتهم على خـلاف مجتمع المـدينـة الـذي تأثـر إلى حد بعيـد بالثقـافة والمعـرفة لـلأديان السمـاوية كاليهودية والنصرانية .

وتناقش هذه الشبهة بالأمرين التاليين أيضاً :

أولاً : إن القسم المكي لم يهمل جانب التشـريع وإنمـا تناول أصـوله العـامة وجملة مقـاصد الـدين كما جـاء في قولـه تعالى : **﴿ قـل تعالـوا أتل مـا حرم ربكم عليكم ألا تشـركوا بـه شيئاً وبـالـوالـدين إحسـانـاً ولا تقتلوا أولادكم من أمـلاق نحن**

نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم اللّه إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده . . . الآية ﴾[1] .

وبالإضافة إلى أننا نجد في القسم المكي وفي سورة الأنعام بالخصوص مناقشه لكثير من تشريعات أهل الكتاب والتزاماتهم وهذا يدل على معرفة القرآن الكريم بهذه التشريعات وغيرها مسبقاً .

وثانياً : إن هذه الظاهرة يمكن أن نطرح في تفسيرها نظرية أخرى تنسجم مع الأساس الموضوعي لوجود الظاهرة القرآنية نفسها . وهذه النظرية هو أن يقال : أن الحديث عن التشريع في مكة كان شيئاً سابقاً لأوانه حيث لم يتسلم الإسلام حينذاك زمام الحكم بعد . بينما الأمر في المدينة على العكس . فلم يتناول القسم المكي التشريع لأن ذلك لا يتفق مع المرحلة التي تمر بها الدعوة. وإنما تناول الجوانب الأخرى التي تنسجم مع الموقف العام كما سوف نشرح ذلك قريباً .

---

(١) الأنعام ١٥١ ـ ١٥٢ .

د ـ لم يتناول القسم المكي في مادته الأدلة والبراهين :

وقالوا : إن القسم المكي لم يتناول أيضاً الأدلة والبراهين على العقيدة وأصولها على خلاف القسم المدني . وهذا تعبير آخر أيضاً عن تأثر القرآن بالظروف الإجتماعية والبيئة إذ عجزت الظاهرة القرآنية ـ بنظر هؤلاء ـ عن تناول هذا الجانب الذي يدل على عمق النظر في الحقائق الكونية عندما كان يعيش محمد (ص) في مكة مجتمع الأميين بينما ارتفع مستوى القرآن في هذا الجانب عندما أخذ محمد (ص) يعيش إلى جانب أهل الكتاب في المدينة وذلك نتيجة لتأثره بهم ولتطور الظاهرة القرآنية نفسها .

وتناقش هذه الشبهة من وجهين :

الأول : أن القسم المكي لم يخل من الأدلة والبراهين بل تناولها في كثير من سوره والشواهد القرآنية على ذلك كثيرة وفي شتى المجالات .

فمن موارد الاستدلال على التوحيد قوله تعالى : ﴿ **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله . إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما**

يصفون ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . أم اتخذوا من دونه آلهة . قل هاتوا برهانكم . هذا ذكر من معي وذكر من قبلي ، بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون)[2] .

وبصدد الاستدلال على نبوة محمد (ص) وارتباط ما جاء به من السماء : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلاّ الظالمون وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾[3] .

وبصدد الاستدلال على البعث والجزاء قوله تعالى : ﴿ ونزلنا من السماء ماءاً مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد وأحيينا

---

(١) المؤمنون : ٩١ .

(٢) الأنبياء : ٢٢ ـ ٢٤ .

(٣) العنكبوت : ٤٨ ـ ٥١ .

به بلدة ميتاً كذلك الخروج ﴾ ﴿ أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون . وخلق اللّه السموات والأرض بالحق لتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾[3] .

وهكذا تتناول الأدلة جوانب أخرى من العقيدة الإسلامية والمفاهيم العامة :

الثاني أنه لو تنازلنا عن ذلك فمن الممكن تفسير هذا الفرق على أساس مراعاة طبيعة موقف المواجهة من الدعوة حيث كانت تواجه الدعوة في مكة مشركي العرب وعبدة الأصنام . والأدلة التي كان يواجه القرآن بها هؤلاء أدلة وجدانية من الممكن أن تستوعبها مداركهم ويقتضيها وضوح بطلان العقيدة الوثنية . وحين اختلفت طبيعة الموقف

---

(١) ق : ٩ ـ ١١ و ١٥ .

(٢) المؤمنون : ١١٥ .

(٣) الجاثية ٢١ ـ ٢٢ .

وأصبحت الأفكار المواجهة تمتاز بكثير من التعقيد والتزييف والانحراف كما هو الحال في عقائد أهل الكتاب اقتضى الموقف مواجهتها بأسلوب آخر من البرهان والدليل أكثر تعقيداً وتفصيلاً[1] .

---

(١) اعتمدنا بصورة أساسية - في عرض الشبهات ومناقشتها على ما ذكره الزرقاني في مناهل العرفان : ١/١٩٩ - ٢٣٢ .

الفروق الحقيقية بين المكي والمدني

ولم نجد في الشبهات التي تناولناها ولا نجد في غيرها ما يمكنه أن يصمد أمام النقد العلمي أو الدرس الموضوعي ومن كل ذلك يجدر بنا أن نقدم تفسيراً منطقياً لظاهرة الفرق بين القسم المكي والقسم المدني وإن كنا قد ألمحنا إلى جانب من هذا التفسير عندما تناولنا الشبهات بالنقد والمناقشة .

ويحسن بنا أن نذكر الفروق الحقيقية التي امتاز بها المكي عن المدني سواء ما يتعلق بالأسلوب أو بالموضوع الذي تناوله القرآن . ثم نفس هذه الفروق على أساس الفكرة التي أشرنا إليها في صدر البحث والتي تقول أن هذه الفروق كانت نتيجة لمراعاة ظروف الدعوة والأهداف التي تسعى إلى تحقيقها . لأن الهدف والغاية يلقيان ـ في كثير من الأحيان ـ بظلهما على طريقة العرض والمادة المعروضة .

وتلخص هذه الفروق والخصائص التي يمتاز بها المكي عن

المدني غالباً بالأمور التالية :[1]

١ ـ إن المكي عالج بشكل أساسي مبادىء الشرك والوثنية وأسسها النفسية والفكرية ومؤاداها الأخلاقي والإجتماعي .

٢ ـ وقد أكد على ما في الكون من بدائع الخلقة وعجائب التكوين الأمر الذي يشهد بوجود الخالق المدبر لها . كما أكد على عالم الغيب والبعث والجزاء والوحي والنبوات وشرح ما يرتبط بذلك من أدلة .

٣ ـ وإلى جانب ذلك تحدث عن الأخلاق بمفاهيمها العامة مع ملاحظة الجانب التطبيقي منها وحذر من الانحراف فيها كالكفر والعصيان والجهل والعدوان وسفك الدماء ووأد البنات وإستباحة الأعراض وأكل أموال اليتامى . . إلى غير ذلك وعرض إلى جانب ذلك الوجه الصحيح للأخلاق كالإيمان بالّله والطاعة له والعلم والمحبة والرحمة والعفو والصبر والإخلاص واحترام الآخرين وبر الوالدين وإكرام الجار ونظافة اللسان والصدق في المعاملة والتوكل على اللّه وغير ذلك .

٤ ـ وقد تحدث عن قصص الأنبياء والرسل والمواقف

---

(١) سبق أن أشرنا إلى هذه الميزات وغيرها عند البحث عن المكي والمدني في السنة الأولى من دراستنا لعلوم القرآن .

المختلفة التي كانوا يواجهونها من قبل أقوامهم وأممهم وما يستنبط من ذلك من العبر والمواعظ .

٥ ـ إنه سلك طريق الإيقاع الصوتي والإيجاز في الخطاب سواء في الآيات أو السور ويكاد أن يكون المدني بخلاف ذلك على الغالب وإن كان قد امتاز بالأمرين التاليين .

١ ـ دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام مع مناقشتهم وبيان انحرافهم عن العقيدة والمناهج الحقة التي أنزلت على أنبيائهم .

٢ ـ بيان التفصيلات في التشريع والنظام ومعالجة مشاكل العلاقات المختلفة في المجتمع الإنساني .

التفسير الصحيح للفرق بين المكي والمدني

وحين نريد أن ندرس ظاهرة الفرق بين المكي والمدني من خلال هذه الخصائص والميزات نجد :

أولاً : أن الدعوة الإسلامية بدأت في مكة وعاشت فيها ثلاثة عشر سنة وهذه الفترة منسوبة إلى زمن نزول القرآن تعتبر في الحقيقة فترة إرساء أسس العقيدة الإسلامية بجوانبها المختلفة سواء ما يتعلق بالجانب الإلهي أو الغيبي أو الأخلاقي أو الإجتماعي وسواء ما يتعلق بالجانب الإيجابي

كعرض مفاهيمها عن الكون والحياة والأخلاق والمجتمع أو ما يتعلق بالجانب السلبي كمناقشة الأفكار الكافرة التي كانت تسود المجتمع آنذاك .

وهذه الحقيقة تفرض ـ بطبيعة الحال ـ أن يكون القسم المكي أكثر شمولاً واتساعاً من جانب وأن يكون مرتبطاً بمادته وموضوعاته بالأسس والركائز للرسالة الجديدة من جانب آخر . وهذا هو الذي يفسر لنا غلبة المدني من الناحية الكمية مع أن الفترة المدنية تبدو ـ تاريخياً ـ وكأنها زاخرة بالأحداث الجسام والمجتمع المدني أكثر تعقيداً ومشاكل . كما أن هذا بنفسه بالإضافة إلى الفكرة التي أشرنا إليها وهي مراعاة الظروف التي تسير بها الدعوة يفسر لنا هذه الخصائص والميزات التي غلبت على المكي من جانب والمدني من جانب آخر .

فأما بالنسبة إلى الخصيصة الأولى : نلاحظ أن المجتمع المكي كان مجتمعاً يتسم بطابع الوثنية في الجانب العقيدي بالإضافة إلى أن إيضاح الموقف تجاهها يشكل نقطة أساسية في القاعدة للرسالة الجديدة لأنها تتبنى التوحيد الخالص كأساس لكل جوانبها وتفصيلاتها الأخرى . فكان من الطبيعي التأكيد على فكرة رفض الشرك والوثنية والدخول في مناقشة طويلة

معها بشتى الأساليب والطرق .

وبالنسبة إلى الخصيصة الثانية : نلاحظ المجتمع المكي لم يكن يؤمن بفكرة الإله الواحد كما لا يؤمن بعوالم الغيب والبعث والجزاء والوحي وغير ذلك وهذه الأفكار من القواعد الأساسية للرسالة والعقيدة الإسلامية بالاضافة إلى أن مجتمع أهل الكتاب كان يؤمن بهذه الأصول جميعها. فكان من الضروري أن يؤكد القسم المكي على ذلك انسجاماً مع طبيعة المرحلة المكية التي تعتبر مرحلة متقدمة كما أن بيانها في هذه المرحلة يجعل المرحلة الثانية في غنى عن بيانها مرة أخرى.

وبالنسبة إلى الخصيصة الثالثة : فلعل التأكيد على الأخلاق في القسم المكي دون المدني كان بسبب العوامل الثلاثة التالية :

أ ـ إن الأخلاق تعتبر قاعدة النظام الاجتماعي فالتأكيد عليها يعني في الحقيقة إرساء لقاعدة النظام الاجتماعي الذي يستهدفه القرآن .

ب ـ كما أن الدعوة كانت بحاجة ـ من أجل نجاحها ـ إلى استثارة العواطف الإنسانية الخيرة ليكون نفوذها في المجتمع وتأثيرها في الأفراد عن طريق مخاطبة هذه العواطف . والأخلاق هي الأساس الحقيقي لكل هذه العواطف وهي الرصيد الذي يمدها بالحياة والنمو .

ج ـ إن المجتمع المدني كان يمارس الأخلاق من خلال التطبيق الذي كان يباشره الرسول محمد (ص) بنفسه فلم يكن بحاجة كبيرة إلى التأكيد على المفاهيم الأخلاقية على العكس من المجتمع المكي الذي كان يعيش فيه المسلمون حياة الاضطهاد وكان يمارس التطبيق فيه الأخلاق الجاهلية .

وبالنسبة إلى الخصيصة الرابعة : نجد القصص تتناول من حيث الموضوع أكثر النواحي التي عالجها القرآن الكريم من العقيدة بالإله الواحد عالم الغيب والوحي والأخلاق والبعث والجزاء بالإضافة إلى أنها تصور المراحل المتعددة للدعوة والمواقف المختلفة منها والقوانين الاجتماعية التي تتحكم فيها وفي نتائجها والمصير الذي يواجهه أعداؤها وإلى جانب ذلك تعتبر القصة في القرآن أحد أسباب الإعجاز فيه وأحد الأدلة على ارتباطه بالسماء .

وكل هذه الأمور لها صلة وثيقة بالظروف التي كانت تمر بها الدعوة في مكة ولها تأثير كبير في تطويرها لصالح الدعوة وأهدافها الرئيسية .

ومع كل هذا لم يهمل القسم المدني القصة مطلقة بل تناولها بالشكل الذي ينسجم مع طبيعة المرحلة التي تمر بها كما سوف نتعرف على ذلك عند دراستنا للقصة[١] .

---

(١) راجع القصص القرآني ـ محاضرات في علوم القرآن ـ السنة الرابعة .

وبالنسبة إلى الخصيصة الخامسة : فقد كـان لها ارتبـاط وثيق بجـوانب مرحليـة وإعجازيـة لأن المـرحلة كـانت تفـرض كسر طوق الأفكار الجاهلية الـذي كان مضـروباً عـلى المجتمع فكـان لهذا الأسلوب الصاعق الحاد تأثـير فعال في تـذليل الصعـوبات وتحطيم معنويات المقاومة العنيفة .

وحين يتحدى القرآن الكريم العرب في أن يأتـوا بسورة منـه يكـون الإيجـاز في الســورة أبلغ في إيضـاح الإعجــاز القـرآني وأعمق تأثيراً وأبعد مدى .

وقـد كانت المعـركة إلى ذلـك كله في أولها معـركة شعـارات وتـوطيـد مفـاهيم عـامـة عن الكـون والحيـاة والإيجـاز والقصر ينسجم مـع واقـع المعـركـة وإطـارهـا أكـثر من الـدخــول في تفصيـلات واسعة ولهـذا نشاهـد السور القصيـرة تمثل المـرحلة الأولى تقريباً من مراحل القسم المكي .

وهـذه الملاحـظات لم تكن تتوفـر في مجتمع المـدينـة بعـد أن أصبـح الإسلام هـو الحـاكم المسيـطر عـلى المجتمـع وبعـد أن أصبحت مسألة الوحي والإتصال بالسماء مسـألة واضحـة وبعد أن جـاء دور آخر للمعـركـة يفـرض أسلوبـاً آخـر في العـرض والبيان .

ومن هـذا الدرس لخصـائص ومميـزات القسم المكي تتضـح

مبـررات خصـائص القسم المـدني من الـدخـول في تفصيـلات الأحكام الشرعية والأنظمة الاجتماعية أو مناقشة أهل الكتـاب في عقـائدهم وانحـرافـاتهم ، حيث فـرضت ظـروف الحكم في المدينة ، والحـاجة إلى تنـظيم العلاقـات بين النـاس.بيان هـذه التفصيلات في الأنظمة . كما أن المعـركة في المـدينة انتقلت من الأصـول والأسس العامـة للعقيـدة إلى جـوانب تفصيليـة منهـا ترتبط بحدودها وأشكالها وبالعمل على تقويم الانحراف الـذي وضعـه أهل الكتـاب فيهـا . وتصفيـة المجتمـع الإسـلامي من الرواسب الجاهلية بشرية كانت أو فكرية أو اجتماعية .

وبهذا نفسر الفرق بين المكي والمدني بـالشكل الـذي ينسجم مع فكرتنا عن الوحي وفكرتنا عن مـراعاة القـرآن للظروف من أجل تحقيق أهدافه وغاياته .

الفهرس